

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية



مخيم يا وطن

رواية

دعد رشراش الناصر

العبيكان
Obekan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، دعد رشراش

مخيم يا وطن./ دعد رشراش الناصر.- الرياض، ١٤٣٠هـ

١٢٨ ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٣-٧٤٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٨١ ٣٤٠٩ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٣٤٠٩ / ١٤٣٠

ردمك: ٣-٧٤٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

عندما يزهر موجك أشجارًا من اللوز
والدحنون...
أمُدُ في عينيك المدينتين...
شريدة اغترابي العتيق...
أرتمي على مرفئك الذي نام عن
الشراع...

فيأخذ مني جواز السفر...
وأظل في ارتحالي الدفيء
أهاجر إليك...
أيتها المدينة الحلم...
أيها الوطن...
يا أمي...





لـم يكن شتـاء ٩٣ يعني شيئـاً ذا أهميـة لمخيم العـودة... الحياة تسيـر برتابة وبؤس مقيتين، وكأن الوجـود شرع في طقوس جنائزية، لا يـزال لحن الموت السرمـدي فيها الصوت الوحيـد المعلن الذي تفققه الأشيـاء.. صفائـح (الزينك) الممتـدة على أسقف البيـوت المتراصة المهترئـة تقوم كل يوم بدور بطولـي نبيل، وهي تتصدى لأشعة الشمس، طـاردة النور، ومبعثرة لأي حلم وليـد بالضياء، لتظل كل القلوب الوجلة الخائفة الساكنة فيها.. الغارقة في بحر أسى لا شاطئ له، تعبّ من أغوار الظلام، فتتشكل ملامحها سودًا أدمنت عليه منذ النكسة الأولى..

تلك القسمات المجبولة بصدى الهزيمة والموت تنصهر كلها وجهاً واحداً بائساً مريراً ينقطر في ذاكرة السقوط والانحدار قطرة.. قطرة.. وتستحيـل كل الأشياء حواليه مرايا؛ لتعكس وجهه الشائه الشريد بقايا إنســان بـلا عنوان.. ولا هويـة.. ولا وطن حتى تلك الأكـوام القذرة من قطـرات الماء التي تشوبها الحكايـا المغدورة ترتد بحرًا يلتهم الفرحة فـي قلوب الصغار، يتراكضون حفاة عـراة، وهم يدركون الموت سطور

لعبتهـم الأولـى والوحيدة.. البحـر!!.. يـا للسخريـة!!!.. عندما كانت «بيـارات»[*] البرتقـال في المـدن العريقة التي ترتمي علـى الشواطئ أسطورة مـن الحسن والجمال، ترقب أولئك الحثالـة الذين جاؤوا من الشتـات يبحثون عـن وطن.. كانت تشيـح بوجهها ترفعًـا.. وتمد يدها الوضيئة متوعدة أن ترميهم بقايا وأشلاء في البحر الذي تقلد صدرها زهـرة أرجوانية استحالت أوراقها نـارًا تحول البحر طوفانًا يرميها في هوامش الزمن قضية منسية.. ووجعًا لا ينتهي على الطرقات التي تتلوى أملاً بعودة لا تجيء!!..

تلـك الرتابة والإحساس بالموت الساكن المتوحـد في كل الأشياء لـم يكن ليعتمر عوالم تلك الشابة التي انتصبت قامة سوداء شفيفة لم تفتـح عيناها يومًا علـى الضياع.. وإن كان ذلك الشتـات لم يضف إلى الموت الممتد في شرايين المخيم بقدوم الصيدلانية الشابة شيئًا.. إلا أنـه انقلب في عوالمها عاصفة تنذر وتهدد وتعلن الوجود إعصارًا يؤذن باقتراب النهاية لبداية لم تكـد تخطو خطوتها الأولى.. مريم العموري شابة فـي السابعة والعشرين من عمرها.. خريجـة قسم الصيدلة من جامعـة كاليفورنيا الأمريكية الشهيـرة.. وجهها طيف فلسطيني كرمي لـم تستطع أمريـكا أن تخفي مسحته السهلية التـي ظلت نسائمه تنشق سحـر البحـر الممتد شرقها.. هنـاك حيث الخضيـرة وأم خالد ونتانيا وغيرها ممن عشقنا البحر حياة، فانصهرن فيه حوريات يتلون أسطورة القداسة ويغنيـن ترنيمات الطهر العتيق.. طيـف فلسطيني لم يلتصق بالجذور مرة.. ولا ردد أغنية النبض الآتي من هنـاك.. من رحم الأرض

(*) البيارة في لغة أهل فلسطين: البستان أو الحقل المزروع بالبرتقال والليمون.



التـي تمتد وحيًا يحكي بهمس شفيف أمومة ندية فجيعة!. لم ترسب في ذهن الفتاة ذات الوجه الأسمر المشرب بحمرة شفق حكاية الوطن قبل هذه الأسابيع القليلة الأخيرة..

كانـت أمريكا بأجوائها الساحرة وطنًا حانيًا بسط ظله الرهيف في عوالمها الصغيرة.. أمريكا الرائعة وطن الطفولة الغضة البريئة.. وطن الانطلاقـة الأولى.. والحـب الأول.. وطن الحياة التـي ترسم الكون كله أطيافًا من قوس قزح، فتمتطيه صهوة جواد.. ولم تكن لترسب في ذهنها تلـك الحكاية المختلقة!.. حكاية الأرض التي لم تدرِ لولا الحادث الأليم الـذي أرقها وأفقدهـا سر الحياة.. ذلك الحادث الـذي تبدى عن عالم غريب قميء سيتشكل شاءت أم أبت ملامح لشتات اسمه وطن!!..

مريم!.. جهزي جواز السفر والحقي بي فوراً.. سننتظرك في السيارة!

كانـت الكلمات اللاهثـة والعينان اللتان اتسعتا خوفًـا وهلعًا سكينًا غـادرًا اختـرق سكون ليلتهـا الدفيئة، فانفجرت نهرًا مـن دم كاد يأتي علـى صفحة عمرها الممتدة في أحلام شهرزاد.. ولم تستطع أن ترقب بعينيها المنشدهتين صخرة تقف عقبة في وجه التيار الهائج المنطلق مـن غيب لم يخطر لها على بال.. انتثرت صفحات الكتاب الذي تحمله علـى الرخـام يأخذها في دوامة عاصفـة إلى مجهول بعيـد.. وانتثرت حبات الثريا شهبًا تحترق أمنياتها بالحياة!.

مريم.. سارعي.. لا وقت لدينا!.

جاءها صوته متقطعًا متحشرجًا صفعة جديدة أيقظتها من شرودها المنقضـ عليها كوحش كاسر.. وما إن أفاقت من ذهولها حتى أمسكت

بجواز السفر وقطعت الدرج الواصل للطابق السفلي مخلفة وراءها ألف علامة استفهام وأماني هزيلة بعودة سريعة إلى مملكة أحلامها!.

ما إن أغلقت عليها باب السيارة حتى تدفقت أسئلتها المحمومة الوجلة:

أبــي.. إلى أيــن تأخذنا في هذه الساعة المتأخــرة من الليل؟!.. ما هــذا الخوف الذي يفترسك، فيحيلنا نهبًا للهواجس والأفكار؟!.. لماذا تسابــق الزمن، وكأنك تتحدى المستحيل؟!.. مــا الذي حدث؟.. وماذا سيكون؟.. وحتى متى هذا الصمت لا يزول؟.

أوقــف سيــل كلماتها الهــادر أنين أمهــا المكتوم التــي تكورت على المقعــد الأمامي جثــة ساكنة، وقد دفنــت وجهها الشاحــب بين كفيها الراجفتين النحيلتيــن.. بينما غطى الليل عبراتها الشاهقة التي كادت تغرقها في موت محتوم.

ســاد الصمت.. وقفــت الأسئلة في الحلوق غصة فنــاء بارد.. وفي الحين الذي أضاءت فيه طرقات ولاية كاليفورنيا استعدادًا لسمر جديد لاه.. كان صــوت محرك السيارة المتعالي يضــيء دروبًا جديدة لا عهد بهــا، ترسم خيوط المستقبل القادم خيوطاً سوداء تمتزج مع الليل حبل مشنقــة يلتف على عنق هذه العائلــة الصغيرة؛ ليكون الســؤال الكبير: أتراها النهاية؟.

بعــد زمن من السير السريع المحموم.. اصطفت السيارة في شارع فرعــي خلف المطار.. نزل الجميع.. التقت النظرات بشكل عاجل قلق، وكأن الواحــد منهــم لم يكن ليجــرؤ أن يثبت سؤالــه المتوجس في روع الآخر.. وقف الأب يردد نظراته الثاقبة بين ساعته الذهبية التي علقها



فــي الجيب الداخلي لصــداره الأسود والناحيــة الشمالية، حيث ينفتح الشــارع الفرعي على الشارع الرئيس، الذي كان من المفروض أن يطل منــه صديقه القديم أحمد الزهراوي ليرمي في يديه الوصايا الأخيرة، ثــم لينطلــق عبر ســرداب الغد الذي لا يأمــن غوائلــه وعواقبه.. كانت الساعــة تشير إلى الواحدة وثلاث وثلاثين دقيقة وخمس عشرة ثانية.. الأنفاســ المترقبة تتحشر بين دقات الساعة زفرة زفرة في ظل انتظار ساكــن عصيب لــم يلبث أن دوّت فــي أرجائه عــن الأم صرخة مكتومة وقعــت على إثرها مغشيًّا عليهــا... سارع الزوج الذبيــح يضرب أرقامًا موتورة؛ عل هاتفه النقال، بينما بذلت الصيدلانية الحائرة جهدًا فائقًا فــي تمالك أعصابها لاستنقاذ أمه من نوبة حادة، فشرعت في إسعاف أولــي ينظم نفسها الزاهــق من هول مفاجأة تحــددت ملامحها هلاكاً وبيــلاً... لم تمضِ لحظات معــدودات حتى كان إسعــاف المطار واقفًا يمسك برفق تلك السيدة الأنيقة التي جاورتها فتاة تماثلها حسنًا ورقيًّا فرضتا مبالغة خاصة في العناية بها..

استرخت على النقالة جسدًا منهوكاً ضعيفًا... كانت أطراف تنورتها المخملية المسترسلة من جانبي النقالة تلوحان كأوراق خريفية متيبسة آن وقــت سقوطها وانسحاقها ذرات هامشية تلوكها أقدام العابرين إلى المجد والأضواء... ذات الأضواء التي تتسع مساحتها الآن في دواخلها، فتكشف غورها ركامًا هائلاً من الفجيعة يخفي صورتها البشعة القميص الذي أزهر على بساطه عقد من اللؤلؤ هو آخر ما تبقى من الحياة التي ارتسمت هناك.. على أبراج الترف المرجاني الغريق!.

إن عليها أن تصحو.. لا وقت للألم!..

رمقتـه الصغيرة بحـزن.. كانت تستشعر رغبة دفينـة بالصراخ.. بالتسـاؤل.. بالانهيـار.. لعلهـا لا تعايش هـذا الليل المندفـع إليها بكل وحشيـة يغرس أنيابـة المسمومة في عينيها الحالمتيـن الصغيرتين.. ولكنهـا لم تستطع أيًا من ذلك، بل تسمرت بلا حراك تتنازعها الأفكار كعارضـة أزياء أنيقـة ارتمت ببلاهة وعجز في زاويـة فاخرة من زوايا فثرينا في محل أرستقراطي كبير..

عفوا يا آنسة!.. هلا أتيت معنا؟.

استجمعـت قواهـا.. همـت بالإجابـة، لكـن الأب الشريـد باغتها مجيبًا:

لا، يـا سيـدي.. علينا الانطلاق مـع الرحلة الآتية.. لـم يبقَ هناك وقت.

هزّ رأسه..

حسنًا سنجري الفحوصات الأولية في سيارة الإسعاف، لكني أعتذر عن قبول طلبك إذا استدعت حالتها البقاء!.

لم يستطع أن يجيب.. سرقته السيارة الفارهة القادمة من الناحية الشماليـة تقـل صديقه أحمد الزهـراوي.. أسرع إلـى سيارته، متناولاً منهـا طرودًا كبيرة حشيت بأوراق وأشياء كثيـرة.. اتجه إلى صديقه.. كانت خطواته اليسيرة تنهب الأرضـ نهبًا، وكأنها تستدعي النهايات.. تفتـح فوهة القمقم الذي كاد يخنقه، ويأتـي على أنفاسه اللاهثة.. أما هــي، فقد انتصبت فريسة الأحـداث المباغتة.. وقفت ينهشها السكون



البــارد برودة الموتى تــردد النظر بين الطبيب، وهــو يجري فحوصاته المتلاحقــة، وأبيها الذي بدا كريشة فــي مهب الريح.. كان يتحدث إلى صديــق العائلة بسرعة مشيرًا إلــى المغلفات التي بيــن يديه.. تناثرت شعيراتــه السوداء على جبهته التي انحدر منهــا العرق لتكسو وجهه ذا الملامــح الجادة النحيلة شحوبًا وأرقًا.. لأول مرة نرى ظهره متقوسًا.. أي هزيمــة يا أبي، تحني ظهرك الصلب الشديد؟!.. أجهشت بالبكاء.. بــدأت تهذي.. تبًا لأولئك المنظِّرين.. تبًا لكلماتهم التي كانت تسحرنا وتأخــذ بألبابنا.. «لا شــيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيــم».. إن الألم مهمــا كان صغيرًا ليحرق عوالــم نضرة بهية، فلكأنها لــم تكن.. كأنها لــم توجد في الذاكرة ذات مرة.. اعتنق الأب صديقه بحرارة، شدّ على يديه ساكبًا آمالاً لا يدري أتتحقق أم تغدو وهمًا لا يستطيعه ولا يدركه.. اتجــه سريعًا صوب الفتــاة والأم الطريحة.. هزّ كتــف الطبيب دون أن ينظــر في عيني أحد كأنه لا يجرؤ.. كأنه يحمّل كاهله الهش عبء الذي حدث، وكل الذي سيحدث..

أرجوك سارع.. لم يبقَ على موعد الرحلة إلا دقائق معدودات!.

حسنًــا سيــدي.. إن السيــدة بخيــر.. ارتفاع مفاجئ فــي الضغط، أعطيتهــا دواء سيتكفل بتسكين الألــم إلى حين.. احرص على إعطائها العلاج الذي وصفته، سنوصي المضيف بها.

تلاحقــت الأحــداث بعد ذلــك.. إجــراءات المطــار الرتيبة كانت تستهلكــه وتستنفــد أعصابه، في حيــن قبعت الأم المندهشــة وفتاتها الصغيــرة فــي حيــرة لا تنتهي وصمت حــاد نازف.. جلس الجميع في



أماكنهم.. لحظات وتقلع الطائرة.. لحظات وتنفصل الجذور عن رحم الأرض والذكريات الحلوة ولوجا لعالم مجهول غريب لم يتحدد من أبعاده شي إلا الخواء و إلا الغدر والفجيعة.. ظل الأب مشدودا قلقا حتى تحركت الطائة آخذة طريقها في الجو بالتدريج.. تنفس الصعداء.. استرخى جسده المنهك على المقعد الوثير.. فكّ ربطة العنق وزرارة القميص العلوية.. فرك صدره بقوة.. كانت نبضات قلبه تدق بعنف كم تدق طبول الحرب مؤذنة بالويل والدمار.. رويدا رويدا.. بدأت أنفاسه تهدأ.. فاستغرق في نوم عميق تاركا وراءه ضحيتين ترقبان المجهول بخوف وهلع!.

مرت ساعات تشكلت بظلها الثقيل دهورا من الانتظار الصعب حتى أفاق الأب.. تعلقت به الصغيرة ساهمة باكية.. اندفعت في وجهه تصرخ بحرقة وألم:

أبي! لا بد أن أفهم.. قل شيئًا.. هدئ روعي وارحم صغيرتك يا أبي.. أرجوك.. ارحمني وقل شيئًا!.. وارتمت على صدره ذابلة تذوي شيئًا فشيئًا!..

لملم شعث كلماته، وبدأ أشياء غير مفهومة.. تكررت كلمة الوطن والغربة التي آن لها أن تنتهي.. كادت تجن.. عن أي وطن نبحث، وقد خلفناه وراءنا بكل ذكرياته وانطلاقاته الرائعة؟!.. ولماذا يتذكر وطنًا آخر الآن؟!.. وما هو؟!.. وبأي حق نترك أمريكا بهذه الصورة المروعة؟!.. ومن الذي يزعم أنه عاش في غربة؟!.. لم يستطع أن يرد.. لم تملك يداه تبديدًا لغيوم القهر الضبابية الراكدة في أعماقها.. لم



يقـوَ أن يضمها إلى صدره، كما كان يفعل عندما تبكي وتتألم.. لم يقدر علـى رفع أنامله الراجفة ليمسح دموعهـا التي تحرق قلبه وتشكل الآتي انهزامًـا وانكسارًا.. لم يقوَ على شـيء، فعاد صريعًا يرتمي على مقعده الوثير يندب حظ فتاته وأمها التي اتسعت حدقتاها تحدقان في السماء، حيث تبصران المستقبل المخيف سوادًا يطغى على كل شيء.

هبطـت الطائرة بعد أن تلـت المضيفة تعليمـات الهبوط للسلامة العامـة.. تحرك الجميع في هرج ومـرج وفرح تهيـؤًا لاستقبال الأحبة والصحاب.. ندّت عـن الأب ابتسامة صفراء في محاولة بائسة مخفقة تستجلـب الأنـس لقلبيهمـا.. سـاروا بصمـت جنائـزي.. فـي القاعة الداخليـة للمطـار، ازدحـم الناس لاستقبـال القادميـن، لأول مرة لم يستقبلهم أحد.. في المرات الكثيرة الماضية التي ارتحلوا فيها لأرجاء العالم كان لفيف مـن الأصدقاء والمعارف يقفون بصبر بالغ ينتظرون مجيئهـم.. هذه المرة بدت القاعة فارغـة خالية، لا أحد ينظر إليهم.. لا أحـد يبحث عن وجوههم التـي حوت عيونًا زائغة غائرة.. لا أحد يأبه لخطواتهـم القلقـة المتعثرة.. ساروا حتى وصلـوا للباب الخارجي دون انعطـاف لأخـذ الحقائـب والهدايا، لم يكـن بحوزتهم شـيء إلا الألم والقهر والرغبة الملحة في فهم ما كان!.

أشـار الأب بإصبعه المزرقة على أحدهـم، فعاجل بإحضار سيارة مـن سيـارات المطـار المصطفة، فتـح البـاب الخلفي، فدخلـت الأم بتثاقـل، وأخـذت مكانها بحركة آلية عند النافـذة.. تلتها الفتاة التي لا زالـت الأفكار تصطرع في رقعة وجهها ذي الملامح الناعمة الحائرة.. سـارت السيـارة فـي الليل الموحش بهـدوء يقطّعه صـوت الأب، وهو

يتحـدث برويـة ودون انسـجـام عن الأقـدار، والوطـن، والأهل الذين ينتظرون عودتهم!.

كان الوقـت شتـاء.. زخـات المطـر المنصبة تعزف لحـن الموت الأبدي.. الريح تعصف بكل شيء.. بالأشجار.. بالمباني.. بالأفق الذي زرعته أمريكا في نفوسهم سنوات طوالاً.. بالأحلام الوردية التي تصوغ الحيـاة لونًا زاهيًا شكلـوه بفرشاتهم المترفة، حتى ليغـدو جميعًا قشة قميئة منكسرة في وجه هذه العاصفة المنذرة المتوعدة..

سـارت السيـارة ببطء تحفظاً مـن الانزلاقات والحـوادث، ورويدًا رويدًا كانت تبتعد عن المباني السامقة الفارهة وتدخل في أحياء مختلفة متباينـة تمامًا حتـى لكأنهما من بلدين مختلفيـن متضادين.. الشوارع تضيـق.. البيوت تلـوح صغيرة مهترئـة متراصة كألعـاب طفل مهشمة قديمـة.. بعضـ الناس يركضـون، وقد انكشفـت أياديهـم وصدورهم للبرد والمطر، وغرقت شعورهم المغبرة الخشنة بالماء المنهمر.. كان سعالهم دونيًا مقززًا غريبًا، سريعًا ما اختفى في تلك البيوت التي بدت مهجورة قذرة.

تشـكل صـوت الأب هذه المـرة صفعة قوية مزقت آخـر أمل ببديل منطقي عندما جاءت كلماته مهتزة باردة:

هناك لو سمحت!.. سنتابع مشيًا، فالطريق ضيق.

دس بيـد السائق عملـة حديديـة غريبة.. فتـح البـاب الخلفي.. أمسـك بيـد صغيرته، وشـد عليها شالهـا الحريري الذي لـم يفلح في تدفئة جسدهـا الراجف.. ضم زوجته إليه، وأسـرع المشي مشيرًا إلى



بيـت صغير من اللبن تغطى أعـلاه بصفائح (زينكو) كما بقية البيوت، أعطـت إيقاعًا متجددًا للموت المنصهر فـي كل حبة من حبات المطر النازفة فوق رؤوسهم..

انغرست أقدامهم في الوحل، وشربت أجسادهم الغضة أول فجيعة فـي هذا المـكان الغريـب الوضيع.. التصـق الأب بالبـاب، وجعل يدق بانفعـال وعصبية.. لحظات وانفتح الباب عن وجه طفل ملتحف بغطاء مهترئ.. دخل الأب، وهو لا يزال ضامًا زوجته التي انحشرت بين صدره وجاكيتـه المصنوع من الجوخ الإنجليزي الفاخـر باكية وجلة.. مدّ يده ملامسًا يد الصغيرة التي بدت خطواتها مترددة حائرة.. انغلق الباب.. كان صريره موحشًا مخيفًا..

تجمعـت العائلـة حـول الضيـوف، بعـد أن كانـت قد التفـت حول مدفـأة قديمة انبعـث منها رائحة الكاز، فشكلـت سحبًا ضبابية كريهة فـي الغرفة الصغيرة التـي ارتمت على أرضها قطع مـن أواني ألمنيوم صغيـرة اضطلعـت بمهمـة التقـاط المـاء المنحـدر مـن الشقوق في صفائـح (الزينك) التي سقفـت البيت.. ذرعت مريـم المكان بعينين غائرتيـن.. الغرفة لا تعـدو أمتارًا ساذجة قليلـة.. الوجوه ذات ملامح قاسيـة غريبة تركبت علـى أجساد باردة انطرحـت عليها ببلاهة قطع صوفية مهترئة مختلفة الألوان.. الأطفال يركضون، وهم يرددون أغاني شعبية غريبـة.. بينما تمددت هناك امرأة كبيـرة في العمر، واستقلت قريبًـا منهـا كسرات جافة من خبز قديم.. كانـت تردد بلا وعي: لا إله إلا الله.. وتسعـل بجفاف كأنها تصرخ من قحف الأعماق.. اعتنق الأب رجلاً عجوزًا، ثم قبَّل يديه.. جاءت كلماته متقطعة:



مرحباً أبي.. زوجتي.. صغيرتي مريم.

حدقت مريم في أبيها طويـلاً.. امتزجت أمام عينيها كل الأجساد البلهاء والقسمات الغريبة المعجونة بغبار المكان وبرودته.. امتزجت.. انصهـرت بسرعة عجيبـة وظلت تدور بهـا في دوامـة عاصفة شديدة تقذفهـا بعيـدًا.. حتى صرخـت صرخة مدوية، فجرت فيهـا كل ما دار في أعماقها من خوف وفجيعة، فجاءت الصرخة بركانًا هادرًا انقذفت حممـه وشظاياه فـي دواخلها نـارًا تحرقها، حتى وقعـت ساكنة سكون الأمـوات علـى الأرض الباردة.. ارتطـم رأسها المفجـوع بآنية الحديد التـي انسكبت قطرات المـاء منه، وظلت تدور إلـى أن التصقت بيدها المكتومة على الأرض بلا حراك!.







أفاقت على همسها الضبابي البعيد:

سنفقد ابنتنا إن لم نفعل شيئًا.. مرّ أسبوع كامل، وهي على هذه الحال.

زفرت بضعف.. شدت على يد أبيها الباردة الساكنة:

مريم.. حمدًا لله على سلامتك!.

بادلته الحديث بصمت.. قلبت عينيها الفجيعتين في المكان، فهوت تبكي على عبق عمرها الذي لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أيام معدودات، حيث كان هناك.. في أرض الحياة الحقة التي انسطرت حروفها الوضيئة مشكلة اسم أمريكا.. تلاحقت أنفاسها.. انتصبت.. صرخت بصمت:

أبي، أريد أن أفهم كل شيء.. كل شيء!.

مريم.. يجب أن تدركي الواقع الذي سنجابه.. يجب.. مهما كان مراً.

أتوسـل إليـك يا أبـي، لا تقدم المـوت لصغيرتك التـي تحب.. قل وترفق بي.

لاذت بالسكـوت، وهي تحتضن فتاتها التـي انطلقت تذوي في ربوع أسى لم تعهده.. كان هذه المرة متماسكاً رابط الجأش:

– ذنبي الوحيد في كل الذي كان أنني أزمعت أن أظل شريفًا مؤمنًا بقيمة الإخلاص والأمانة.. كان لا بد أن أتمسك بهذه الشعارات البراقة علـى الصعيد العملي مهما كلفنـي ذلك من تضحيات.. يجدر بصورتي التي لم تهتز في عيون الآخرين ألا تهتز أولاً في عيني.. كيف سأقف في المـرآة وأحدق في عينين تزعمان منظومـة رائعة من قيم لا تمت لهما بصلة؟!.

حدقت فيه طويلاً.. استرسل بثقة ممزوجة بأنة حزن أصيلة:

قـررت أن أفضـح كل التلاعبـات والمؤامرات البشعـة التي أرادوا أن تمـر من بين يدي.. ظنوا أن رنيـن آلاف الدولارات سيتكفل بتخدير الضميـر ولو إلى حين.. مريم.. تعلمين جيدًا أن هذا لا يمكن أن يكون، وأن تحقيـق منفعة ذاتيـة مهما كانت كبيرة لن تكـون على حساب أحد بـأي حال من الأحوال.. دبرتُ الأمور، واتصلت مع المحامي.. كانوا قد راقبـوا خطواتي خطوة خطوة تحفظـاً من أي مفاجآت.. برقية التهديد كانت على مكتبي بعد دقائق معدودات!.

جحظت عيناها.. التصقت بالأم التي تكورت ببؤس وانشداه..

كان كل شـيء فـي القائمـة.. حياتـي.. حياتـك.. حيـاة أمـك.. ممتلكاتنـا.. أثـق بقدرتهم على كل شـيء.. إنها حرفتهـم التي أمضوا



عمرًا في تحصيلها وتطويرها.. سارعت إلى الهاتف العمومي لاستشارة المحامي.. كلماته الهادئـة الواثقة لم تلبث بعد لحظات أن تحولت إلى صرخة مغدورة أخيرة..

انكتم نفسهـا اللاهث في بوتقة الخوف تجرها بعنف لرغبة أصيلة في البكاء.. انحدرت عبراتها باستسلام بالغ..

طلقـات النار فجـرت صورتكما أمامـي.. إن المتسـع القليل الذي كنـت أملك كان ينبغي أن يقوم بكل شـيء.. كل شيء.. استنقاذ حياتنا جميعًا.. والإنقاذ كان يعني الهرب، ولو إلى حين!.

كانت الحقيقة التي تحوم حواليها في الأثير المسكون بأنفاس أولئك الغربـاء مفجعة قاتلة.. تواقع الريح هـذه المرة كان يؤصل في أعماقها فكـرة الحرمـان.. الفقـدان الذي يعني شيئًـا واحدًا.. يعنـي الخسارة المطلقة.. الموت الذي لا مفر منه.. تراخت يداها.. ارتمت على الفراش المهتـرئ الذي ضم جسدها الناعم، متنحية عـن صدر أمها الذبيح.. هزها بعنف.. كاد كاهلها ينساب في يده سقوطاً جديدًا:

مريم!.. يجب أن تكوني أقوى، يجب علينا جميعًا أن نقف مواجهين لهـذه المصيبة.. عملت جهدي لخسارة أقل.. صديقي أحمد الزهراوي سيتكفـل بالكثيـر.. يجب ألا نفقـد الأمـل.. مريم.. الأمـل الذي كنت ترددينـه دومًـا لحن أنشودة يجـب أن ينتصب حقيقـة واقعة.. يجب.. مالنا الآن إلا هذا المكان، نعايشه حتى يشاء الله شيئًا..

أغرقـت في البـكاء.. بينما مـدت الأم يدها تتلمـس بضعف جبهة الصغيرة، ووجهها الذاوي المرتحل في غيبوبة طويلة!.



مرت مسـاءات دامسة بـاردة.. الحوادث الجديـدة أضفت سكونًا زائدًا على المكان.. الأب العجوز الحائر راح في سجداته الطويلة يدعو لحفيدتـه المسكينـة المستلقية هنـاك كجثة باردة.. بينمـا كان سعال زوجته الجاف يقطع سكون الليل.. تتبعه بتهليلها المتأني الدافئ: لا إله إلا الله... وبين الفينة والأخرى كانت زوجة ابنهما المتوفى قبل سنوات معـدودات تقوم لتضع العجين على الطابون.. إن تحوله إلى خبز يسري فـي عروقه بشيء من الحـرارة كان مبعث سرور لابنيهـا الصغيرين.. وللعائلة جميعًا حيث يلتمون حوله، يقطعونه إلى لقيمات تنغمس في زيت الزيتون، فتبل ريقهم بجانب حبات البندورة (الطماطم) الصغيرة التي يعطي لونها القاني شعورًا مزيفًا بدفء منشود فقيد.. لم يأبه له كل من الزوجين الشاردين!.

تململت.. فتحت عينيها ببطء بالغ.. تنفست الأم الصعداء:

مريم.. حبيبتي.. هل أنت بخير؟!.

همـت بإغفاءة أخرى طويلة.. هروب آخر!.. ولكن صفعة قوية على خدها الصقيل باغتتها، فأفزعتها..

صرخت بألم:

أمي! ماذا تفعلين؟!.

مريـم.. وأنت مـاذا تفعلين ؟!.. إن عينيـك الغافلتين ترميان كل مـن حولك في دوائـر النسيان.. فـي هامش حقير مـن دلالك الناعم الأناني!



أرجوك.. لا.. إن الألم يكاد يخنقني.. يقتلني.

أنـت تحملين سكيناً تمررينه علـى أعناقنا جميعاً.. انظري حولك! انظري جيداً.. الكل في استكانـة وتضرع من أجلك.. وأنت لا تأبهين.. يا لنرجسيتك الغبية!.

تبـاً!.. أنت لا تدركين وجعي.. إن عوالمي كلهـا تنهار أمام عينـي.. أنني أفقد كل شيء.. كل شيء!.

وأيـن ذهبت كل تلك السطور البراقـة التي كنت تتحدثين فيها عن القوة والأمل والتحدي؟!.

كلمات.. مجرد كلمات لم أظن يومًا أن أحياها واقعاً مريراً كهذا!.

تعترفين إذًا بعبثية عمرك!.

أتوسل إليك ألا تزيدي أعباء أساي.. إن عمري يزهق بين يدي.

إنك لا تكلفين نفسك عناء التفكير!.. مجرد التفكير بغد أفضل!.

وكيف؟ ألم تسمعي أبي، وهو يقص خسارتنا البائسة بهذه البساطة المفجعة؟.

ولمـاذا لـم تأملي خيراً بصديـق العائلة.. إن أحمـد الزهراوي قد يستطيـع استنقاذ شيء من الرصيد البنكي أو العقارات.. قد نعيش في مكان آخر في وقت آخر!.

لا تؤمليني بشـيء بعيد.. اتركيني.. اتركيني أغـرق وأموت.. فهذا خير من الحياة في هذا المكان الحقير!.

مريم.. أنت ضعيفة.. أضعف من كل تلك الحشرات التي لم تكفّي عن التعريض بها وشتمها هنا!.

اتركيني وشأني.. اتركيني.

كيف أتركك؟.. يجب أن تنهضي.. يجب أن تفكري بطريقة أخرى.. من أجلك.. ومن أجلنا جميعًا.

لا أستطيع.. الموت خير من لحظة بائسة في هذا المكان القميء.. تبًا!.. كيف يستطيعون الحياة؟!.

اتركي طبقيتك جانبًا.. أين إنسانيتك؟.

لا تفلسفي الأمور.. اتركيني.. ودعي حزني وشأنه.. أريد أن أبكي... أموت.

شئت أم أبيت يا مريم، فإنك لن تنشقي إلا هواء المخيم.. ولن تأكلي سوى خبزه المقطور بالزيت الموحش!.

تهددينني؟!.

بل أكشف لك الواقع.. وسيظل كذلك إن لم تفكري بغد أفضل.

وكيف؟.. كيف السبيل إلى الأمل؟!.. إنه محض غباء.. غباء!.

والذي تفعلينه الآن.. أهو محض عبقرية؟!.

أرجوك.. ارحمي ضعفي.

ارحمي نفسك يا مريم.. ارحمي كل من قبع حولك يستجدي قوتك.



أريد أن أحيا ألمي.. إن هذا حقي.. حقي!.

ليس حقك في شيء..

اتركي كاهلي.. لا تعنفيني بهذه القوة.. أرجوك.. تكادين تفصلينه عن جسدي.. أرجوك.. آآآه!.

قطـرات الماء لا زالـت تصطك بالأواني النحاسيـة المترامية هنا وهنـاك تعطـي إيقاعًا متجـددًا باللحن الجنائزي يظـل يستطرد ويعلو إزاء الصمت المخيم المطبق والشفاه المتيبسة التي لم تنبس عن بنت شفة.. اللهم إلا ذلك السعال الجاف المتردد من قحف الأعماق.. تتردد في أرجائه من بعد تلك العبارات الموقنة الراجفة: لا إله إلا اللّه!..







إنهم أنصاف بشر!.

إنهم فقراء!.

والقناعة التي يقتاتونها.. أهي فقر كذلك؟.

هي التشرد يا مريم.. حيث لا أمان ولا وطن!.

أبـي.. إننا الآن لا نعيش على سطح الأرض.. نحـن في نفق مظلم نتن، لن تطوله الشمس والهواء!.

الأقدار يا عزيزتي.. فما ذنب الضحايا؟.

ضحايا جهلهم يا أبي.. هم الذين شقوا طريق تعاستهم.. ألا ترى!.. إن هذه الوجوه لا تنذر إلا بالسوء والفشل!.

صدقينـي يـا عزيزتي.. لقـد دارت رحـى الزمـان، فأطبقت على المستضعفيـن الذين لا يملكون شيئًا.. ذات يـوم كانوا يملكون قسمات نضرة كملامحك الحلوة!.



أبي!.. هؤلاء!!..

مريم.. تتردد في أجسادهم النحيلة أنفاس بشرية.. كيف لا تدركين ذلك، وقد كنت عضوة في جمعية المحافظة على حقوق الإنسان؟.

أبي!!..

آسف.. لست أباك!.

ارتدّت للوراء..

أريد هذا الدواء لو سمحت!.

أخذت الوصفة بعد أن تنحت عن المقعد المصنوع من القش في هذه الصيدلية القميئة.. لعلها يا مريم، تغير شيئًا من الملل الذي تحسين به!.. فضتها بهدوء.. كانت الكلمات لا تزال تهجس في خاطرها.. «تتردد في أجسادهم النحيلة أنفاس بشرية».. صدقت يا أبي.. أنفاس بشرية غبية بلهاء.. ليتك تقف بجواري الآن؛ لترى كيف ينتصب هذا الظهر الشاب المتقوس!.. ترى لو كنت شرطياً.. لو كنت سجانًا كيف سيقف هذا الأبله أمامي؟!.. تباً.. إنه لا يستحق حتى أن أقف لإحضار الدواء له.. أنصاف بشر.. شئتم أم أبيتم أنتم لا تشكلون نمطاً بشريًّا متكاملاً.. صورتكم فحسب تحكي أنكم من هذه السلالة.. أما نفوسكم فلا يمكن أن تكون برقي النفس البشرية.. أنتم محض حثالات ترتمون على هامش الزمن مركومين منسيين.. رباه.. متى سيصل خطاب الزهراوي؟.. متى؟!.. خطت كلمات سريعة على علبة الدواء تحكي أوقات تناول الدواء والجرعات اللازمة.. مدت يدها ببرود.. أخذت



العلبــة.. قلبهــا متفحصاً الثمن.. كان الرقم مفاجئــاً كبيراً.. حدق في عينيها بصمت.. بادرته:

ما بك؟.

لا أحمل كل هذا المبلغ الآن.

المبلغ!.. أتسمي سعر هذه العلبة مبلغاً؟!.

أرجــوك.. هــل أستطيــع أن أدفــع نصــف الثمــن الآن، حتــى أدبر الباقي؟.

ردت بعنف:

بالطبع لا.. إن لم تكن تملك النقود فلا حاجة لك بالدواء..

أرجوك!.

أرجوك.. لاتهدر وقتي!.

استــدار صــوب الباب.. كان يقبضــ على الوصفة بحرصــ متمتمًا بكلمات متلاحقة غير مترابطة.. حدّق في عينيها البرجوازيتين بحنق، ولكنه لم يتفوه بكلمة.. خرج مسرعًا..

لــم يكن إيقــاع خطوه المضطــرب بأشد اضطرابًا مــن خفق قلبها الصغيــر.. لماذا تقف هذا الموقف غيــر الإنساني؟.. لماذا لا تستطيع أن تبصر في عينيه نظرات الحاجة واللهفة؟.. لماذا تتشكل هي إنسانًا غريبًا آخر؟.. ولكن!.. من يبصر في عيني حاجتي للأمان؟.. من؟.. من يحــدق في داخلي الخرب؟.. إن لحظة قلــق واحدة أعيشها الآن تساوي



كل عمركـم المجبول بالخوف والألـم.. إن عمري يضيع من بين يدي.. ينكسر كأبسط ما تنكسر قطعة زجاج في شارع من شوارعكم القذرة.. لمـاذا؟.. لماذا تحملني أعباء نظراتك الحاقدة؟.. لماذا؟.. أنا خائفة كما أنت خائف.. قلقة.. حزينة.. هبني لحظة أمان، فأعطك ما تريد.. لكنك أعجز من ذلك.. أعجز.. ولماذا يا أبي، تقنعني بهذا المكان حتى يـرد علينا صديقك؟ ولماذا أنساق وراء نفسـي فآتي إلى هنا؟.. أدرك تمامًـا أني لن أستطيع معايشة هؤلاء النـاس! فلماذا أبقى؟.. لماذا؟.. لماذا؟...

ارتمـت على الكرسي الصغير المصنوع من القش ضعيفة حزينة.. كانت نظراتها تخترق كل شيء لتصل إلى سد كبير مظلم من المجهول، فتحـرك يديها بعصبية كأنها تريد أن تبعد تلك الهواجس سريعًا؛ حتى لا تتشكل في ذهنها حقائق موحشة تخيفها وترعبها.. مرة أخرى تحدق فـي أسماء المحـلات التي تقف بلا هويـة ولا عنوان.. بقالـة العودة.. مخبز حطين.. القدس للحدادة.. الناس يسيرون بحركة رتيبة مؤلمة.. وصـوت الأطفال وهم يلعبون بالكـرة التي صنعوها مـن بقايا الأقمشة لتنحشر بعد ذلك في كيس من النايلون ضوضاء لا طاقة لها بها!..

اقتربـت من بـاب الصيدليـة الزجاجي لتغلقه، فترتـاح من أولئك الصغـار المزعجين.. من الغريب حقًا أنهم سعداء بكرتهم الساذجة.. أحالهـا ذلك المنظـر إلى الحديقـة العامة في ولايـة متشجن.. يومها كانت ترتدي فستانًا حريريًا أزرق اللون تداخلت فيه أشكال ورود بيضاء صغيـرة ناعمة، وقد زُمّ أعـلاه عند منطقة الصـدر متوسطاً إياه وردة بيضـاء كبيرة لينساب بعد ذلك باتساع جميل.. وتقلدت شعرها الأسود



الناعم قبعة من ذات اللون كان قد استلقى على طرفها الأيمن (بروش) صغير يحمل شكل أرنب صغير يقدم سلة ورد من النرجس ربطت بنطاق أزرق كزرقة السماء الصافية انساب حتى الأذن.. كان عمرها آنذاك لا يتجاوز السنين الأربع، لكنها أحسنت الجلوس على المقاعد، حيث دلّت قدميها الصغيرتين تلوح بهما.. حتى لمحت مهرجًا يحمل كرات صغيرة من بعيد.. نزلت سريعًا.. وبعبارة مفهمة أومأت إلى أبيها أن يبتاع لها واحدة.. دقائق معدودات وكانت الكرة بين يديها الصغيرتين تلعب بها.. فتارة تركلها بقدمها وأخرى تجلس عليها حتى تقع على النجيل الممتد بساطاً أخضر رائع الخضرة.. تذكر تمامًا كيف وقفت حائرة إزاء ذلك النتوء البارز في الكرة.

جلست على العشب مادة رجليها الصغيرتين.. وبدأت بعملية استكشاف جاد للتعرف على ذلك النتوء.. شدته بيدها اليمنى فانخلعت فوهته وجرى الهواء في وجهها، وقد طارت الكرة إلى أمتار قليلة.. رجعت للوراء وأخذت تبكي في حين انطلقت ضحكات من حولها من المعارف ممن راقبوا تحركاتها ومغامرتها الطفلة البريئة!.. ضحكت.. لكن ضحكتها انكسرت على إثر بكاء طفل أشج خارج الصيدلية.. حتى ذكرياتي تفسدونها بحماقاتكم!.. ما الذي يا أبي، رماني في هذا الوحل الآسن؟.. وحتى متى؟.. تذكرت!.. لا بدّ أن خطاب الزهراوي قد وصل اليوم.. لا بد.. هكذا وعد أبي.. سأعود للمنزل.. هناك على كل حال غرفة أتوارى فيها عن الناس.. وإذا سأل عني صاحب الصيدلية، فليقل له أبي ما شاء.. أخذت معطفها الجديد.. وضعته على كتفيها.. وقفت بجانب الباب من الخارج.. وأشارت إلى أحدهم:



أنت!.. لو سمحت.

ماذا تريدين؟.

أنزل لي باب الصيدلية.

استفزته النبرة المتعالية..

ألا تستطيعين القيام بذلك..

أنت غبي.. لو أنني أستطيع ما ناديتك.

وأنا كذلك لا أستطيع.. ألا ترينني ألعب بالكرة.

همت بصفعه.. ولكن صوتًا ردها!.

لا بأس سأقوم بذلك.

مدّ يديه إلى أعلى الباب، وسحبه بخفة وقوة.

أين المفتاح؟.

خذ.

فتـح القفل.. ثـم أدخله في حديدة معقوفة مثبتـة في الأرض.. في أمريـكا لم تكن تضطـر لذلك أبـدًا.. كان «الريموت كونتـرول» يتكفل بذلك.. كم سنة ضوئية يا ترى تحتاجون حتى تصلوا لهذه المرحلة؟.

تفضلي..

شكراً..



قالتهــا ببرود.. وضعت المفتاح في حقيبتهــا ومشت بشرود وحذر؛ خشيــة أن ترشقهــا المياه القــذرة الملوثة التي احتلــت المكان.. أحمد الزهراوي!.. هل تدري يا سيدي، كيف تملأ الأفق أملاً؟.. لم تعد إنسانًا عاديــاً إطلاقًــا.. أنت الآن أسطورة.. أسطــورة حقيقية لنا الثلاثة على الأقــل.. أعترف أنك تحتل كل مساحــات تفكيري.. إن صوتك إذ يحمل نبــأ العودة ليسري في عروقي قطرة قطرة.. أتوسل إليك.. أضرع إليك أن تلقــي بخبر ما.. إن أي حرف منك قد يعني حياة أخرى.. أرجوك لا تبطئ.. أرجوك..

كادت تتعثــر.. الحمــد لله.. لم أقــع.. ولن أقع.. لــن أتلوث بحطام هــذا المخيم.. لن أتلوث قــدر ذرة ببؤسه وانسحاقــه.. لن ينال مني.. وسأعــود.. سأعــود إلــى أمريــكا وأحيــا مستقبلــي.. سأناقــش رسالة الدكتوراه، وسأضع اللبنــة الأخيرة التي تحدد مركزي العلمي المرموق لأسير إلى نجاحات أخرى.. و...

كادت تصــل المجد لولا كرة طائشة ممزوجة بالوحل انحدرت عبر التلــة القريبة لتلطخ ثوبها الأنيق.. أنفاسها البرجوازية العالية.. صمت الأطفــال إزاء وجهها المنــذر بالعاصفة.. كادت تحطم كل شيء.. تلعن كل شــيء.. كانت تتمنى أن تقلب المخيم رأسًا على عقب، فتجد نفسها خــارج إطاره الملوث.. وتجــد أولئك الصغــار المتوحشين، وقد صاروا تحــت التراب.. لم تفعل شيئًا مــن ذلك.. انطوت على حنقها المأزوم.. سارت، وقد انفجرت من الداخل.. تعالت أصوات الأطفال..

ألم أقل لك.. إنها لم تفعل شيئاً.



يبدو أنها ضعيفة لا تفعل شيئًا!.

كـرة وحلية أخرى اندفعت مـن الخلف.. التفتـت بسرعة وراءها.. كانـت الكـرة قد تضخم حجمهـا أضعافًـا كثيرة.. خافـت.. ركضت.. خرجـت مـن الكرة كـرة أخرى.. وأخـرى.. عشـرات الكـرات المليئة بالوحـل والحشرات تندفع إليهـا من الخلف.. ركضـت بأقصى سرعة تستطيعهـا.. كان لهاثهـا المتحشـرج يتـردد دقات طبول حـرب بشعة تستهدفهـا هي.. أنت بصـوت مرتفع.. الكرات تندفـع تحيطها من كل جانـب.. عشرات.. مئات الكرات.. آه.. إنهـا تخنقها.. صرخت بأعلى صوتها.. صرخت وقدماها الكليلتان لا تزالان تبحثان عن منفذ لنفسها المخنوق... تعالت ضحكات الأطفال:

مجنونة!.

أرأيتم كيف أخافتها كرتي؟.

ارتمت على الباب الخارجـي للمنزل.. طرقت بخوف واضطراب.. جـاءت طرقاتها ضعيفـة.. انفتح البـاب عن وجه الجـد.. قال بصوت متهدج:

أهلاً مريم.. عدت مبكرة!.

لم تجب... أسرعت إلى حيث أبوها وأمها اللذان انحشرا في زاوية مـن زوايا الغرفة.. دس بسرعة ورقة صغيرة كان يمسك بها في جيبه.. تبادل وزوجته نظرات ساكنة زائغة.. ركعت على ركبتيها:

أبي.. قل: إن رسالة ما وصلت من الزهراوي!.

تصنع السكينة.. مسح على رأسها الصغير..

نعم عزيزتي.. نعم..

ردت بتلهف وشوق:

وماذا يقول؟.

رفعت الشركة قضية.. وكَّل محاميًا ممتازًا.. لكنه يقول: إن الأمور تسير لصالحنا.. الوضع مبشر يا مريم.. مبشر يا صغيرتي.

قبلته بحرارة:

أرجو ذلك يا أبي.. أرجو ذلك!.

تعالى صوت الجدة الممزوج بسعال جاف:

الأكل جاهز.

رمقتها بألم.. نفضت ثوبها الملطخ، وقالت بعصبية:

وتسمينه طعامًا؟.

تدخل الأب سريعاً:

إنها لا تقصد يا أمي.. هي فقط متعبة من الدوام في الصيدلية.

وضعت صينية القش التي ارتمت عليها كسرات من الخبز بجانب زيت وزعتر وبضع حبات من البندورة.. قالت:

لما طردونا من ديارنا قالوا: إنهم لا يقصدون.. تعالي يا سمية.. تعالي كلي ونادي الصغار.. إنهم منذ الصباح ما أكلوا!.



انسحبت الأم بهدوء.. بينما جلس الأب.. ربت على كتف العجوز:

اعذريها يا أمي.. تعبت أعصابها من الحالة التي تعيش فيها..

سعلت..

اللّه يعيــن يا ابنــي.. اللّه يعين.. ولو كانت فــي حالة حرب، كيف يا ترى ستكون أعصابها؟!.

قالت سمية، وهي تطعم أحد الصغيرين اليتيمين:

واللّه يا عمتي، ما أحد يعرف.. الحرب مرة.

رد الصغير ضاحكًا:...

والجوع مر.. «طعميني يمّا»!!

تابع الجميع الطعام بسكون وصمت.. بين لحظة وأخرى كان صوت الصغيرة يرتفع بالبكاء يتلوه صوت الأم، وهي تحاول إقناعها بالمكتوب حتــى يشــاء اللّه شيئًا.. بينمــا غاصت عنق الأب فــي قميصه حياء من العجوزين اللذين دأبا على تغميس الخبز بالزيت بصمت ورتابة.

في المساء افترشت حجر أمها تستجدي شيئًا من الدفء والأمان.. منذ وصلت هذه العائلة الفجيعة والصمت عادة في الدار.. رفع العجوز صوته معلنًا انتهاء صلاته:

السلام عليكم ورحمة اللّه.. السلام عليكم ورحمة اللّه..

بادره الصغير:



تقبل اللّه يا «جدو»..

منا ومنكم.. منا ومنكم يا ولدي..

وقعت عيناه الغائرتان على العجوز التي انكبت على عيدان القش تصنع منها سلة..

يعطيك العافية يا حاجة.

اللّه يعافيك يا حاج.. يتقبل اللّه.

منا ومنكم إن شاء اللّه..

قالت، وهي لا تزال مثبتة عينيها على القش..

زارتنا اليوم أم محمد.

قاطعتها سمية..

تفضلي يا عمتي.. الشاي سخن يمكن يعطيك قليلاً من الدفء.

واللّه يا عمتي بعد «دفا الوطن ما فيه».. هاتي الشاي..

دارت على الجميع.. منظر الشاي كان يبعث شيئًا من الدفء فعلاً.. رشفت مريم عدة رشفات؛ علها تدفئ أوصالها الباردة.. تابع الجد ويده المهتزة تمسك كوب الشاي:

وهل قالت شيئًا؟.

قالت وليتها لم تقل!.



خير يا حاجة.. إن شاء اللّه لا يكون ما في بالي!.

واللّه يــا حاج، إنه هــو.. لعنة اللّه على اليهود، وعلى الذي باع أرضًا لعميل اليهود.

لا حول ولا قوة إلا باللّه.. لا حول ولا قوة إلا باللّه..

حاولت واللّه أن أفهمهما.. لكنها ملت من حياة المخيم.. قالت: إن الفلوســ التي أخذتها مــع التي كانت معها ممكن تشتري لها بيتًا صغيرًا في العاصمة..

بيع الأراضي لليهود سيجعل كل مكان مخيماً..

واللّه صحيح يا حاج.. واللّه صحيح!...

تريــدون إدانــة كل مــن يسعى للنــور.. كل مــن يفتح طاقــة جميلة للحياة.. كم أتمنى أن أفهم ما يدور في أخلادكم.. كم أتمنى أن أعرف كيف تفكــرون؟.. كيف تنظرون للوجود؟.. أف لحياتكم البائسة!.. إنها ليست الأقدار يا أبي!.. إنها هم.. إن الشقاء هم الذين صنعوه بأيديهم، فأدمنوا عليه.. أما سمعت ما تقول؟.. رفعت صوتها:

وليكن.. أليس من حقها؟!.

ردت الجدة دون أن ترفع عينيها العجوزتين عن القش:

ليس من حق أحد أن يبيع فلسطين.

وما شأن هذا بذاك؟.



نظرت الجدة إليها.. هزت رأسها غير راضية.. رددت:

لا إلــه إلا اللّه.. الحــق واللّه ليس عليك.. الحــق على أبيك الذي لم يعلمك شيئًا.

بادر الأب:

أمي.. واللّه يا أمي ما هو عن جهل وقصد.. الدنيا أخذتنا!.

سعلت بقوة..

واللّه يــا ابنــي، صدق الذي قال: « اللي إيده فــي الميّ مشْ زيّ اللي إيده في النار».. وأمريكا كلها ماء.. جنة تنسي الإنسان وطنه!.

ما هكذا يا أمي..

قالت بقوة:

لكــن اللقمة في الوطن ليســت كالعز والجاه في غيــره.. وفلسطين سوف ترجع، لكن ليس على يد الذين يقبضون الفلوس أو الذين هاجروا ونسوها.. فلسطين لأولادها الذين انحرقوا لما ضاعت!.

تدخل العجوز:

هدئي يا حاجة.. ما يصير إلا الخير إن شاء اللّه..

سعلت بألم...

صحيح يا حاجة.. الوطن غالٍ.. إن الجذور التي تعرف وطنًا تمتد في ترابه الطاهر لن تلين أبدًا.. لن تضعف أبدًا.. منطقك رائع.. وعقيدتك



صلبة. إنك تهبينني العزاء والسلوى.. فصبرًا.. صبرًا يا مريم.. لا بد أن تعودي إلى أمريكا.. إلى حيث الوطن والشمس والخلود.. يا جدة.. ينبغي أن تفهمي مشاعري أكثر من الآخرين.. إنني منقطعة الجذور عن وطني.. عن الأرض والذكرى والمستقبل...

قطعت الجدة هواجسها المتلاحقة:

وأنت يا حاج.. ألن تتحدث مع (أبي محمد)؟.

تحدثت إليه كثيرًا.. لكن رأسه عنيد.. رفض إلا أن يقبض الثمن.

بكت الجدة:

يا حسرة.. يا فلسطين.. لكن ليس كل الناس مثل أبي محمد.. والله لو جعت العمر كله ما أبيع ذرة من ترابك الغالي.. والله اشتقنا يا قدس.

أجهشت بالبكاء.. ظلت تسعل، وتردد بحزن:

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!...

لأول مرة تصمت.. الحديث عن الوطن يثير كل مشاعرها.. كل أحاسيسها الغضة البريئة المنطلقة نحو الحياة والدفء والأمان.. الله يا جدة.. ما أجمل أمريكا!.. ترى لو رأيتها هل ستحنين حقًّا إلى فلسطين؟..

راحت في نوم عميق تحن فيه إلى عالم الغيب والمجهول يقودها الزهراوي إلى الجنان المستعادة بعيدًا عن كل ما هو عدا أمريكا الوطن.. بعيدًا عن فلسطين والبيوع التي لم تفهم سرها...



همست الأم:

لقد نامت..

رد بصوت خفيض، وقد أطرق ساهمًا:

حسنــاً.. وليبقَ أمر الزهراوي سرًّا بيننا.. لعل الأيام تأتي بما ليس في الحسبان!.







هــذه المــرة خطواتها كانت أكثر ثقة.. فها هــو ذا أحمد الزهراوي يثبــت ولاءه ووفاءه للعائلــة.. وعلى الرغم من أن الأمــور لا تسير تمامًا على ما يــرام، إلا أن وقفته الواثقة ووعوده المتلاحقة وتوكيله للمحامي لتأتــي عباراته المطمئنة طير سلام يرفرف علــى القلوب الخائفة كان داعيًا جيدًا لأن ترى النور بشكل آخر مختلف هذه المرة..

لن أدع (سيمفونيتك) البائسة تضرب على أوتار قلبي.. أيها المخيم، أنــت عالم آخر لــن أستطيع الانصهار فيــه.. لكني أسيــر في طرقاتك مستدعيــة حرارة الحياة التــي أريد أنا.. ومن أجلي أنا.. أما أنت فعليك أن تقــف وتستدعي المستقبل الذي تحــب.. كيف تنتظر من الآخرين أن يفعلوا ذلك؟.. عجيــب أمرك.. ترضى الموت وتنتظر، إذ تنتظر الحياة مــن الآخرين!.. جلســت على الكرســي الصغير المصنوع مــن القش.. ذات الأسماء تردد أمام ناظريها.. بقالة العودة.. مخبز حطين.. القدس للحــدادة.. النــاس لا يزالون يسيرون بنفس الرتابــة والسكون.. واللّه يا زمــن! لأول مرة أبصر حركة ساكنة.. يــا إلهي.. إن فكرة استيلادي في

هـذا المكان مرعبـة.. أحمـد الله.. والشكر لك يا زهـراوي.. لو تدري السحر الذي بثه خطابك فـي أوصالي.. لو تدرك اللون الذي أضفاه في عيني الغائرتين، وأنا أقبع في هذا المكان البائس.. لكم أنا مدينة لك.. مدينـة لك بأول أمل يطلع من بين ركامات اليأس التي أصابتني، فكادت تقضي علي.. إن براعم التفاؤل رائعة روعة حروفك يا سيدي..

لم تكد تسترسل في أحلامها النضرة حتى أفاقت على ركلة قوية للباب الزجاجي كادت تحطمه.. قفزت فزعة من مكانها.. صرخت بعنف:

غبي.. كلكم وحوش لا تعرفون كيف تتصرفون..

دخل مسرعًا.. كان منظره داعيًا للخوف والهلع.. يده اليسرى كانت تنزف دمًا، بينمـا استرخى الكم الأيمن لقميصـه فارغًا على الجنب، حيث غابت يده المقطوعة في عالم الغيب.. عيناه الجاحظتان.. وآهاته المتوسلة ردتها للوراء.. جاء أنينه مستعطفًا مستغيثًا..

أرجوك.. ساعديني.. أكاد أموت!.

استقرت توسلاته في أعماقها.. رثت لحاله.. لنظراته التي أغرقت فـي الوجـع.. لدمائه النازفـة تنقطر فيهـا أنفاسه، حتـى ليقترب من النـزع الأخير.. أسرعت إليه.. فحصت الجـرح جيدًا.. لا مادة بحاجة لإخراجها.. لا كسر في العظم.. وبحركة آلية سريعة ضغطت على الوريد النـازف لتقطع تدفـق الدم.. عقمت الجـرح أخيرًا.. إن هـذا سيتكفل بإنقاذ الوضع لحين وصول الطبيب.. أناته الصاعدة.. زفراته المغرقة فـي الوجع والكتمان حفزتهـا لأن تبذل أقصى مـا تستطيع.. كانت تند عنه أنات بعيدة لا إرادية، وكأنه يحاول الصمود.. تماسكت:

لا بأس.. لحظات وينتهي كل شيء!.

يا لجرأتك!.. كيف تحتمل كل هذا الوجع.. حقًّا مسكين أنت.. سيلتئم الجرح بعد شهور، ولن تستطيع يمناك أن تسعفك في شيء.. سيكون مجرد تناولك الطعام صعبًا.. يا إلهي.. كل شيء يحوم حوله.. الموت والبؤس.. هل حقًّا أنتم أحياء أم أموات في رداء حياة لا تجيء؟!..

كانت لحظات عسيرة شاقة.. جففت عرقها النازف كدمائه التي ملأت المكان.. غطت الجرح.. ثم حقنته أخيرًا بمهدئ قوي.. استرخى أمامها كجثة تستعد للغياب في أعماق الأرض.. باردًا وجلاً كان.. فرشت على الأرض حصيرة صغيرة مددته عليها.. كان يرتجف من البرد والألم.. بدا وهو على الأرض كهامش مهمل.. وبحركة غير واعية خلعت معطفها وغطته..

يا إلهي.. ماذا أفعل؟.. كيف أدبر أمري؟.. إنني لا أستطيع استجوابه كما لا أستطيع استدعاء أحد.. أين المشفى؟.. أين الشرطة؟.. أين أنت يا أحمد الزهراوي، لتنقذني بورقة واحدة من كل هذا العذاب.. أبي.. نعم.. إنك من يستطيع تدبر الأمر!.

كانت الحادثة مدار الحوار مساء.. التفت العائلة حول الصغيرة المنقذة.. نظرات الدهشة والإعجاب لم تفارقهم جميعًا ولا سيما الصغيران اللذان انطلقت أسئلتهما بشكل سريع متلاحق.. بدت وهي تتوسطهم كأبي زيد الهلالي أو الشاطر علي الزيبق.. لم تستطع أن تخفي مسحة السعادة التي انتابتها، وهي محور حديث الجميع.. ولكنها بلا شك كانت مسحة مشوبة بالكثير من الألم.. لماذا لم أكن محور



الجميع في أمريكا؟.. عند الزملاء والصحب.. وفي مكان أكثر رقيًا من هذا؟!.. جاء صوته دافئًا حبيبًا إلى قلبها:

- مريم.. كان عملك رائعًا!.

- لم أستطع غير ذلك يا أبي.

- ها أنت تعودين لطبيعتك.

- أبـي.. إنني أعود لطبيعتـي، وأنا أحيا الأمل الذي علقنا به السيد أحمد الزهراوي.. لن تكون حياتي هنا أبدًا.

تصنع تقبل الكلمات.. لـو تدرين يا عزيزتي، ما الذي يقوله السيد أحمد الزهراوي؟.. جاءت كلماته باردة:

- طبعاً.. طبعاً.. ستتابعين حياتك في أمريكا أحسن مما مضى.

مـر شهر على الحـادث الأليم.. جلسـت كما العادة علـى الكرسي الصغيـر المصنوع من القش.. إن الأيام تسير.. وأبي يطلعني بين فترة وأخرى على تطورات القضية.. أعرف تمامًا أن مثل هذه القضايا تأخذ وقتًا طويلاً.. وحيث إن السيد أحمد الزهراوي هو الذي يتابعها بمركزه المرمـوق فلابـد من أمل مهمـا كان ضئيلاً.. إن الأمـل بمجرد الخطو على تـراب أمريكا مرة ثانيـة يستحق الحياة.. هـب نسيم بارد حاملا ورقـة بيضاء صغيـرة.. نفذت من نافذة الصيدليـة حتى استقرت على الطاولـة الصغيرة أمامها.. فتحتها وهـي ساهمة.. يا للمفاجأة!.. إنها مـن السيد أحمد الزهراوي.. فتحت عينيها جيدًا.. نعم.. إنه هو.. وها هـو النبأ المنتظـر.. يا لروعتك يا سيـدي!.. إن سطورك تعبق بالحياة

الرائعـة.. كم أنت عظيم.. تلاحقت الأوراق التي حملها النسيم الدافئ عبـر النافـذة الصغيرة.. امتلأ الأفـق بالأوراق التي خـطّ عليها توقيع السيـد الزهراوي.. داعبـت شعرها المسترسـل.. فنهضت بخفة تفتح الباب.. لـم يخب ظنها.. كانت الأوراق تتوارد بسلاسة وانسياب حاملة كل الآمـال الحلـوة بغد أمريـكا.. كل الأوراق تستحيـل وردًا تنتثر عند قدميهـا، واستحالت هي أميرة برجوازية صغيـرة.. رقصت على الورد المتناثر في كل مكان.. أغمضت عينيها سعادة..

أخـذت نفسًا عميقًا، وكأنها تعـرف الحياة للحظة.. ظلت تتراقص فـي الصالـة الملكية كأجمل مـا تكون أميـرة مدللة.. امتـلأت القاعة بالحضور.. الكل منبهر بجمالها الآخذ.. حركاتها الرشيقة الساحرة.. ألحـان (السيمفونية) تتعالى.. تتعالـى.. وهند آخر صوت (بتهوفيني) رائـع وقفت.. انحنـت.. تعالى التصفيـق بينما أغرقت هـي في حمرة متوردة خجلة.. أطرقت قليلاً.. ثـم انتصبت.. رفعت عينيها استعدادًا للحن جديد ورقص جديد..

كان الإيقـاع هـذه المرة صارخًـا حـادًّا.. الأجسـاد البشرية التي اصطفـت ببذلاتهـا الأنيقة قبـل قليل تحولـت إلى جـرذان ذات أنياب مسمومة تنقض عليها.. صرخت.. استغاثت.. ركضت.. الصالة تضيق بشـدة.. انحشرت في زاوية ضئيلة مـن زواياها العفنة.. انقضت عليها الجـرذان بوحشية تمتص دمهـا الأزرق.. صرخت بأعلى صوتها.. جاء صوتهـا مكتومًا ضعيفًا.. ارتمـت على الأرض غارقة فـي بحر دماها.. انفتح الباب:



مرحباً..

نظرت إليه بعينين مندهشتين:

أنت؟!.

جئت لأقول: شكرًا.

هذا واجبي.

لا أدري لولاك في أي العوالم أكون؟.

ها أنت ذا تنتصب بقوة.. إن قدرتك يوم جئتني ذبيحًا كانت مذهلة.. وها أنت ذا ترفل بقوتك.. فلماذا جئت؟.. أجئت لتعكس صورتي في مراياك عاجزة حائرة.. لأتبدى أمامك وأمام عالمك الصغير المتوحش إنسانة لا حول لي ولا قوة؟!.. فليكن، أنا حقًّا ضعيفة.. أتوسل إليك أن تهبني صمودك لحظة لأكسر هذا القمقم البشع الذي يأتي على أنفاسي لأخرج من خضم هذا البحر الذي تتعالى أمواجه ساحقة لأي إرادة وليدة للحياة.. ليتك تحمل صورة الزهراوي.. ليتك تحمل حرفًا.. سطرًا طالعًا من بين يديه..

أتسمحين أن أقدم شيئاً؟.

تابعت صمتها..

سحب قطعة مربعة متوسطة الحجم كانت قد استقرت تحت إبطه القتيل.. أمسكها بشيء من عدم الاتزان.. قلبها بهدوء.. ثم نصبها بين عينيها السوداوين الجميلتين.. مدت يدها بتروٍّ، ونزعت الغطاء الأبيض



الشفـاف الذي لفها.. أحالـت نظرها في هذا الشيء الغريب.. حدقت، ثم ما كان منها إلا أن انفجرت ضاحكة:

هذه أنا؟..

ندت عنه ابتسامة انتصار..

هل أعجبتك؟..

لـم تجب.. كانـت لا تـزال تستعبر اللوحـة بين يديهـا.. لأول مرة تبتسم.. تضحك منذ أتت المخيم:

حقًّا إنها رائعة..

باستغراب:

حقًّا!!.. هل أعجبتك؟.

ثبتت عينيها على اللوحة.. قالت ضاحكة:

أنت مبدع حقًّا.. منظرك مضحك!.

لم أتوقع أبدًا أن تعجبك!.

صمت قليلاً.. أردفت باسمة:

آه.. ماذا توقعت؟.

أدار عينيه بحركة مضحكة..

قل، وعليك الأمان!.

توقعت أن..

أخـرج لوحة صغيرة بحجم الكـف.. مد يده مسلمـاً إياها.. تنحى قليلاً.. نظرت في اللوحة.. ابتسمت.. ضحكت كثيراً..

أنت رهيب!..

فـي الحقيقة.. لم أتوقع أبدًا أن تستقبليني في الصيدلية.. ولكن لا بد من أن أقول لك: شكرًا.. كنت رائعة حينها.

ولماذا ظننت ذلك؟.

بصراحة لم ينصحني أحد بالاقتراب.

آه.. ماذا يقولون؟.

يقولـون: إنـك لا تحسنيـن ودهـم.. إنك تقوميـن بالواجـب بأقل الواجب!.

صراحتك جيدة.. قالت وهي تنظر في اللوحة..

أعجبها رأسها الكبير الذي توارى برغم حجمه الغريب خلف نظارة ناصعـة، وهي تمسك بإبرة ضخمة رسم عليها جمجمة قد استقلت على الفراشـ.. كان معلقًـا فـي الهواء، وقد فغـر فاه، بينمـا تكفلت دموعه المنسابـة من طرفي العينين بإغراق الأدويـة المتكومة في الصيدلية، فانطلقت تعوم في هذا البحر الموار..

نظرت ثانية في اللوحة الأخرى.. هذه المرة كانت يدها قد تضخمت كثيرًا، حيث استطاعت أن تمسك به من ناحية العنق لترفعه عاليًا ولتترك

عنقـه متدلياً، وعينيه وقدميه تلوحان في الهواء بطريقة عشوائية.. أما الأدوية فقـد قامت بمهمة بطولية عظيمة، حيـث سلطت الأسلحة عليه وكانت الرصاصات تخرج متشكلة بملامح وجهها الغاضب.

لا يخفى أنك فنان جيد.

رسم الكريكاتير هوايتي.. إنها وجه حقيقي لي.

ولكن!..

أفهم ذلك.. إن الرسم بيد واحدة ممكن كذلك..

عليك إذًا أن تحرص عليها.. خبرني، ما سبب الحادث؟.

خطأ صغير من عامل في المنجرة.. ردت بجد:

يبدو أن عليكم أن تدفعوا الكثير جراء أخطائكم المتكررة.

ماذا تقصدين؟. بجد كذلك:

صمـت صغير يرميكم في أحضان البؤس والحرمان؛ لتعيشوا كما لا يليق بالبشر.

اندفع بعصبية:

أنت لا تعلمين شيئًا.

وأنـت كذلك.. حسنًا.. جهلـي خير من علمكم الـذي أوصلكم إلى حال مضنية كهذه الحال!.

الأمر أكبر من ذلك.. أكبر بكثير.

فعلاً.. أكبر.. وأنتم لا تدركون شيئاً.

ما الذي تريدين منا أن ندركه؟.

غبي.. ألا ترى جيداً؟.

بل أرى.. أرى كل شيء.. وأرى تماماً كيف أنك تتشدقين بحكمة الجالس على الشاطئ، وهو ينصح الغرقى.

فنان حقًّا!.. فلماذا لم تستطع أن ترسم هواء نظيفاً.. نفوساً بشرية لأولئك الماشين في الطرقات؟.

ولماذا لم تحضري شيئًا من الكمامات أو الفلاتر من أمريكا؟.

انتصبت.. أشارت بيدها صوب وجه المعفر..

تبًا لك.. أنا لا أغرق في ذاتيتي.. ألا تفهم؟.

قطع نقاشهما الحاد طفل صغير فتح باب الصيدلية.. كان يمسك بيده وصفة علاجية.. كادت تصرخ.. ليتكم تموتون.. إن هذا الجيل الخانع الذليل الذي هزه الفقر والجوع والذل لا يمكن أن ينتصب يومًا.. لا يمكن أن يتشكل حسًّا إنسانيًّا رفيعًا.. لماذا لا تموتون جميعًا، ويموت معكم هذا الأسى؟.. ألا تشعرون أنكم عبء كبير على المدنيات الراقية؟.. على الحياة الجميلة؟.. على الدنى التي تزخر بأطياف حلوة؟.. ربي.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟.. كيف يا أبي، توصلك قدماك النظيفتان إلى هنا؟.. وكيف تستطيع استنشاق هذا الهواء الملوث؟..

كـم أرثي لحالك ياأمي!.. مـا أشد صبرك وصمتـك!!.. وأنت يا أحمد الزهــراوي.. لم أعد أحتمل غيابك أكثر! ليتـك تعيش هنا للحظة حتى ترحم وجعي.. تبًا.. تبًّا!.

صرخـت في الصغير الذي وقف حائرًا تجاه ردة فعل غير متوقعة.. بدأت تهذي:

أنــا المعلقة بين فضاء العمر الساحر وعالمكم القذر.. أنا التي شد عنقها وتعلقت حياتها بأجوائكم الملوثة..

أنا.. قاطعها..

بأي حق تتجرئين؟!.

وبأي حق تجرؤون على نهب عمري؟.

أنت مسكينة يا مريم.

أنــا!!.. ضحكت.. أنتــم المساكين.. إنني على أي حــال أحلم بأمل قريب.. أما أنتم، فماذا يعشش في رؤوسكم غير الأوهام والهوان؟.

يسكننا الوطن.

آه.. لا تتحــدث عــن الوطــن.. أنــت لا تعــرف الانكســار الذي دوى بداخلــي إذا تنفصل جذوري عن الوطن.. وطني الجميل.. وطني الحلم الذي يرسم الوجود طيفًا بديعًا يداعب كل حس جميل بداخلي.. أعطيك عمري، إذ تهبني لحظة واحدة أتملى فيها وجه أمريكا الرائع.. الوطن.. ماذا تعرفون من الوطن؟.

جلست ساكنة... التمعت عيناها اللتان اغرورقتا بالدموع، وانطلقت شريدة الهواجس والأفكار.. قال بهدوء بالغ:

كلانا يبحث عن وطن.. ألا يحق لي؟.

لم أضيع وطني.. عاركم أنكم فعلتم!.

ونحن لم نضيع!.

وإذا، كيف تفسر لي كل ما يدور حولي؟.. كيف ترضي المئات.. الآلاف أن تبعد عن ظل الوطن؟.. أنا أستطيع أن أفسر كيف خرجتُ من أمريكا.. وأنتم؟!.

ونحن!..

قالها بتصميم منكسر.. خطا خطوات مسكونة بأنة عتيقة نحو وعاء بلاستيكي صغير حشي بتراب أحمر، وقد امتدت فيه نبتة خضراء متسلقة.. كانت ترقب خطواته برغبة عميقة في الصراخ.. في صفعه حتى يذوي وتذوي في عالمها البعيد.. مد يده الجريحة نحو الأوراق.. شدها بعنف.. تناثرت ذرات التراب في كل مكان.. غشيت عينيها السمراوين.. ظلت تتناثر وتتناثر حتى كادت تخنقها.. تقتلها.. تأتي على أنفاسها الحائرة الزاهقة.. أستغيثك أيها الموت، أن تقبل لتصهرني في بؤسك.. خذني بدل الموت الرابض في أعماقي ينهشني كل يوم.. كل لحظة.. رمى بالنبات على الأرض.. كانت الجذور ملتصقة بذرات التراب:

هكذا.. هكذا اقتلعنا.. وهكذا رمينا في هذا المكان!.. الفرق الوحيد بيننا وبين هذه النبتة هو الجذور!.

صمتت.. لم تحر جوابًا.. لم تتفوه بكلمة.

جذورنـا لن تـزال هنـاك.. ممتدة في رحـم فلسطيـن.. في حرم الوطـن الذي لم تعترفي بحقنا في التوجع مـن أجله.. لن يستطيع أحد أن يفصلنا عن المدينة.. عن الوطن!.

انتبهـت إلى عينيـه الغائرتيـن.. انتبهـت كيف تلاشـت ابتسامته الساخـرة لتبقي وجهًا متيبسًا ظمـآن حائراً.. وحدنـا الجرح.. وحدنا الحنيـن إلى وطن ضائع شريد لا يأتي.. عـذرًا.. ولكن ليتك تعلم نزف الجرح داخلي!.. إنني أقف على عتبات الرمق الأخير.. هل تشعر بذلك حقًّا؟.. هل يسكنك هاجس الوطن؟.. هاجس الذكرى والحلم؟.. هاجس العـودة والالتصاق بالدفء الحميم الذي يرسمه الشيء المقدس الذي يدعى: وطن؟.

كانـت يـده الجريحة تلتصق بجنبـه البارد.. بدا هزيـلاً ضعيفًا لا يقـوى على الوقـوف.. كان سمته يحمل عنوان الانكسـار والحزن.. ظل صامتًـا.. أدار ظهـره إليها، بينمـا حدقت عيناه في السمـاء التي تلوح أمامه شاهدة على حبه القديم.. خطواته البطيئة حكت الكثير عن أمل لا يجـيء.. وعن حلم يظل يتألق فـي السماء نجمة بعيدة لا تطولها يداه الكليلتان!.

خرج.. بقيت وحيدة في وحي كل الذي جرى.. ارتمت على الكرسي غارقـة في سـراب الكلمـات.. وقعـت عيناها علـى اللوحتيـن.. لماذا خرجـت؟.. إن شفاهك المتيبسة تنطق حروف الأمل والامتداد الجميل فـي عي عمق الحنين الساكن هناك في غور الداخل.. لماذا خرجت؟..

لا تـدري لماذا احتلت صـورة الجدة كل مساحة الرؤيـة.. نادت: نعم.. يمكنـك أن تسكبـي من يقينـك الفطري البـارد على حـر الأسى الذي يحرقني..

لم تبالِ بالصيدلية.. لم تبالِ بشيء.. كانت خطواتها شغفة ظمأى.. تسيـر بثقة وكأنها تدرك المورد الصافي الـذي تستسقيه سلامًا وأمنًا للخوف الحائر الكامن في أوصالها!.







كانت تجلس في مكانها المعهود.. ثوبها الفلسطيني الأصيل لا يفارق جسده الهزيل.. إنها تتوحد فيه، فيتشكلان منظومة رائعة من الالتحام الحقيقي والانصهار الفطري، فتتبدى ملامحها حقلاً من سنابل قمح يستقبل الشمس والنور، فيلتمع انتصابًا وإرادة أصيلة بالحياة..

ازداد ظهرها انحناء، وهي تنكب على ضمة الزعتر القابعة أمامها.. سمعتها مريم أكثر من مرة تردد أن المصيبة أحنته.. كان قويًّا مثل عمود الدار يا مريم.. كان يعرف الفرح في البيارات ومواسم الزيتون.. ما كان هناك ظهر يحزن ويبعد.. كانت مواسمنا أعراسًا، فصارت أعراسنا أحزانًا.. من يوم النكسة ما رأينا لحظة حلوة..

باقات الزعتر وسلات القش والإبرة نفس فلسطيني في البيت يرد الذاكرة إلى الأرض.. إلى عبق الامتداد الأصيل المتجذر في عمق الوطن.. بين مدة وأخرى كان لا بد من ممارسة لهذه الطقوس بحسب المتيسر علّ الروح تنتشي، تحلق في أفق الذكرى التي لا تغيب..

أهلاً يا جدة.. خير إن شاء الله، عسى ما فيه شر!.

نظرت إليها بعينين حائرتيـن.. ماذا أقول يا جدة؟.. جئت أتمسح بعتبة ظهرك.. أتشرب روح كلماتك؛ عسى أن يهدأ هذا المارد الصاخب داخلي، يذبحني في قمقمه وهو يقرع روحي التي تتهاوى كل يوم بأسئلة تلهبني عن حكاية الوطن والحقيقة.

كل خير.. شعرت بالتعب، فقلت: أرتاح هنا قليلاً.

تهللـت أساريرها.. لأول مرة تسمع هـذه الصغيرة الثائرة تتحدث عـن الراحة والسكينة في ظل المخيم الـذي أوشك على تدمير كل حي فيها!.

والله أنت الخير والبركة يا مريم.. كنت أعرف أن هذا سيحصل.

ردت بهدوء:

هل أساعدك يا جدة؟.

أنت تعبانة يا مريم روّحي.. ارتاحي!.

أين الراحة يـا جدة.. كل العوالم أضحـت ضبابية تغشى دواخلي، فتولـد حيرة قاتلة تتركني صريعة البحـث والانتظار.. إيه يا مريم، كم أشعر بالتعب؟.

لا يا جدة.. سوف أساعدك.

اقتربـت.. لأول مـرة تجلس بجانبهـا.. كانـت تسـترق النظر إلى التجاعيـد التي امتدت على رقعـة وجهها العجوز، فكسته بعدًا يغرق في

عالم غامض سحيق.. أتراه الوطن؟.. أتراها الغربة التي انكسرت على صخرتهـا العاتية مسارب الزمان الآمن المنساب في سرداب الحياة أو آفاقها المتسعة؟!.. لست أدري يا جدة!.. إن ملامحي أشد بؤسًا منك.. مدي يدك.. تلمسي وجهـي.. هل تتحسسين الظلمة الغارقة فيه؟.. هل تدركيـن الضياع الممتد حتى ليأتي تياره علـى كل ظن أبله بأننا نعرف ذواتنـا.. ندرك أسـرار الوجود المرتحل عنا.. حتـى متى يا جدة، هذا السوط العنيد يلهب ظهري الذي تقوس حتى تعفر المحيا بتراب المكان الغريب.. حتى متى؟!..

جدة.. قالت بصوت خفيض..

سكتـت.. كانت تـردد كعادتهـا لحن أغنيـة تتلاحـق كلماتها على شفاهها أصالة ذات سحر خاص.. ما أجمل ما ترددين!

نعم، يا مريم.. نعم يا بنتي.. واللّه هذا الوجه الحلو تحبه فلسطين.. ما غيرت أمريكا منه شيئًا.. ردت بهدوء..

جدة.. كيف جئتم إلى هنا؟.

شدت على أوراق الزعتر.. قالت، وكأنها تنتحب..

(حكايـة أسى مـر ما ينساه أحد.. واللّه ومـرت السنون ونحن بعاد يا دار!).

قولي يا جدة.. قولي.. لماذا بعدتم عن الدار؟.

لا تغلطـي يـا مريم.. نحن ما بعدنـا عن الدار.. نحـن تشردنا من

ديارنـــا وأحواش الـديـار.. والله يا فلسطين، ما هنـت في عيـونـا.. والله يا قدس، ما نسينا، وما ارتحنا من بعد الصلاة في حرمك..

انذرفت دموعها تحكي الأسى الذي يصطرع في الداخل.. كثيراً ما كانت تبكي.. تئن.. لقيمة النسيان حيز كبير في أذهان الآخرين، لكنها لا تستطيع أن تنسى أو تتناسى.. فللوطن حضوره في هذه الذاكرة التي تعتصر وجعًا.. وللألم امتداده الذي على أفقها، فيصبغه بالسواد.

اليهــود يا مريم، كان لهــم ظهر يساندهم.. لما جــاؤوا إلى بلادنا مــا كانوا شيئًــا.. كانوا مثل قشر القمح عندما يتغربــل ويترك.. صاروا شجــرة شوك التف علــى كل فلسطين.. قلعوا شجــر الزيتون والبرتقال وصرنا ضائعين.. والله يــا مريم، البيارات كانت ترد الروح.. كنا نقعد في ظلها، وما نفكر في شيء من الدنيا.. صارت الدنيا ما تفكر فينا.

وكيف يا جدة؟.

الإنجليــز يا مريــم.. ما طلعوا حتــى تأكدوا مــن أن اليهود قادرون على سرقة كل شيء.. الوطن.. الناس.. الشجر.. الهوا.. لعنة الله على اليهود وعلى الإنجليز.

وأنتم يا جدة.. هل سكتم؟.

والله يــا مريم، ما سكتنا.. الله يشهــد وعباده يشهدون.. لكن ماذا نعمــل واليهود جردونا مــن كل سلاح، والإنجليز زودوهــم بكل سلاح.. عــدل يا مريم، ما صار؟.. والله ما هو عــدل.. البيوت تهدمت، والناس قتلت، والأراضي صودرت.. وبرغم كل شيء ما سكتنا.. حاربنا بالعصي

وبالبواريد التي ظلت بين أيدينا.. اللّه يرحمك يا قسام، ويرحم ثورتك.. اللّه يرحمك يا قسام!!

لم تتمالك نفسها.. كانت صورة الشهداء قافلة طاهرة تمر أمامها عابرة زمن التخاذل والصمت.. وكانت صورة الوطن تلوح ضمة دحنون مشرب شفق تتعالى من بين الآهات الذليلة التي يتردد صداها في أرجاء المخيم.. مخيم يا وطن.. نموت والشمس ما تطل علينا في أرض الغربة.. والوطن يعيش فيه الغريب!.

كان يومًا أسود حين طردونا.. كنت في البيت أقرأ القرآن.. واللّه ما كنت خائفة إلا أني أبعد عن القدس.. القدس غالية يا مريم.. فيها نفس الأنبياء.. القدس بيتنا وبيت الذي ماله بيت.. ما شعرنا إلا اليهود يطوقون المنطقة.. أصواتهم اللئيمة تأمرنا بالخروج.. من غير شيء.. نخرج ونترك بيوتنا وأحواش البيوت.. نترك أرضنا وذكرياتنا.. نترك كل شيء.. صرخت بأعلى صوتي: أموت، وما أطلع من الدار.. جاء واحد منهم يحمل بارودة.. ضربني فيها على كتفي، وقال: «لازم تطلع خبيبي.. كعود هون ما فيه»!! اللّه يلعنك يا غريب.. «قعود لك في الدار ما فيه».. أمسكت بعمود الدار وصرخت: ما أعيش إلا في هذي الدار.. الدار دارنا والوطن وطننا.. اطلعوا أنتم منها.. اطلعوا.. اطلعوا..

حملني بيده النجسة ورماني في (التراكتور).. كنت سأرمي نفسي في الأرض، لكن اليهود طوقوا كل مكان، وكان أمرهم (للتراكتورات) أن تمشي.. حملوا الناس فوق بعضهم.. واللّه يا مريم، كنا نشفق على الغنم ماذا نعمل في هذي المصيبة.. القرية كلها ترحلت.. (التراكتورات)



تمشي.. الناس تبكي وتصــرخ، وأنا أتفرج في المآذن وشجر الزيتون.. كل خطــوة يمشي فيها (التراكتور) نبعد عن الوطن.. والله يا مريم، إن الموت أرحم.. منذ ذلك اليوم، ونحن نموت في اليوم مليون مرة.

تجسدت أمريكا بوجهها الجميل وطنًا يرتحل عنها.. إيه يا جدة.. ما أقســى الانفصام عن الوطن!.. عندما تنسلخ الذات عن الذات، وتهاجر الغربة إلى الداخل.. يضحي الوجود بلا قيمة.. ما قيمة الإنسان بلا مبدأ يشده إلى رسالة ما؟.. إلى عمق ما؟.. ما قيمة الإنسان بلا وطن؟..

وصلنا للبحر.. وهناك رمونا فيه.. يومها رأينا أرض الغربة.. والله لــو فرشوها لنا ذهبًا مــا كانت حلوة في عيوننا.. الغربــة مرة.. مرة يا مريم!!.

عبراتهــا السخينة المنحدرة على تقاسيم وجهها المتغضن الذاوي وحدهــا كانت الحكاية.. حكاية وطن مغــدور.. أمة تضافرت من حولها أنيــاب الذئاب تنهشها فــي ظلمة ليل فاجع لتقبع فــي الهامش انكسارًا وغربــة وأسى.. يــا لنوارســك الشريدة يا وطــن!.. كم شقيــت بالموج يرميها على شواطئ النسيان!.

ونصبــوا الخيام.. وصار اسمنا لاجئين ونازحين.. اسم أسود بلون الخيمــة والمؤامرة.. قال: الهيئــة أمرت برجعتنا.. وكيــف يا مريم؟.. كيف والأرض ما تسعنا نحن الاثنين؟!..

مريــم.. هــا.. إن الحقيقة تتبدى لــك.. تنكشف عــن مأساة شعب غريــب غريــق.. القدس هاجســه.. والوطــن يسكــن أوصالــه الباردة المتأججة بروح الرغبة لعودة لا تتأتى!.



وغريقة أنا كذلك.. ووطني على مرمى إرادة مستحيلة..

تغرقين في ذاتيتك.

إنــه ليس اتهامًا.. من منا لا يأبه لذاته؟.. كيف سأعيش همّ شعب، والمـوت يذبحني أنــا؟!.. يحز سكينه الماضية فــي شرايين الحياة في جسدي الضعيف!..

تهربيــن مــن قناعاتك التي كنــت تستعرضين.. كــم كنت تجيدين تهميش الشخوص لترفعي شأن فكرة!.

الفكرة!.. الفكر!..

مالك تصخبيــن؟.. نعم.. الفكرة.. فكرة الإنســان الذي ينبغي أن يعيش إنسانيته.

حسنًا.. فلماذا تتواطئين على إخراجي من حيز الإنسان؟..

ولمــاذا تتخفين خلف قنــاع الإنسانية المزعومــة، وأنت لا ترين إلا وجهك المأزوم؟.

إلام ترمين؟.

إن لــم تكوني بقدر الشعارات التي ترفعين، فخير لك أن تمزقيها.. إن حيــاة الشعارات الممتــدة تكمن في إخراجها إلــى الوجود.. عندما ترى النور.. فحسب، تعيش لصاحبها.

آمنت بالإنسان و...



آمنت بذاتك.. ألا ترين؟.. تدركين الحقيقة البائسة، ثم تتقهقرين إلــى الــوراء.. ما زلت تبحثين فــي الداخل عن مملكــة أحلامك.. وعن طيف أحمد الزهراوي.. وحسب!..

إن لي أن أرقب ذاتي.. أن أمسح الوجع عن قلبي الذي يكده التعب.

إذا أنــت تريديــن أن تحيــي اللحظة.. فقط.. فأيــن الامتداد الذي كنــت مسكونة به؟.. أم أنه امتــداد المترفين على أرض الحياة النضرة الهنية؟.

لم أبصر غيره.

من قبــل.. ولكنك الآن تبصرين آلاف الوجــوه الشائهة التي تبحث عن أمان.. عن حياة بدل الموت الذي تنشقه في كل حين..

لن أستطيع.. إن الأسى أكبر من يدي الصغيرتين!.

عندمــا ترفعين الراية لن تظلا صغيرتين.. وستجدين آلاف الأكف التي تحملها معك.. لن تكوني بمفردك ذات لحظة.

فلماذا لم يرفع أحدهم راية؟.

النــاظــر من بعيد لن يدرك التفاصيــل.. التفاصيل وحدها هي التي تشكل الحقيقة الجلية.

الحقيقة..

لــم تشعري بثقــل البحث عنها ذات مرة!.. لمــاذا تتضخم الأشياء حواليك الآن؟.



الأشياء تختلف..

ولكـن الحقيقـة لا تختلـف.. الإنســان جوهــر.. إن مجــرد ثيــاب البرجــوازي لا ترفعه إلى مرتبــة الإنسان.. كمــا أن البؤس المتربع في كل شــيء لا يرمي به هناك إلى هامشــ الإنسانية التي تكادين لا تقرين بأنفاسها الحية..

لا أدري..

عليك فقط أن تتخذي موقفاً..

لا أدري.. لا أدري..

حدقت في عينيها العجوزتين اللتين لم تكفا عن البكاء.. لم تستطع أن تفعل شيئًا.. وقفت الكلمات في حلقها سكونًا حائرًا.. أما العزاء فقد ارتحــل بعيدًا إلى حيــث لا تستطيعه يداها الضعيفتــان.. حيث المئذنة تصدح بلا إلــه إلا الله.. وحيث أشجار الزيتون ترمي ظلاًّ حانيًا يبحث عن أولئك الذين تشردوا في مناحي الزمن، ولما يرتد خطوهم الحزين إليه!.







افتعلت المفاجأة وردة فعل مغرقة في عدم الرضا..

أنت؟.

مرحباً.

ما الذي أتى بك؟.

الجرح.. ينبغي أن تكشفي عليه.

هذا شأن الطبيب.

ابتسم.

ولكنك تكفلت بعلاجه ابتداء.. كيف أسلم يدي لطبيب آخر؟.

كان مـا يزال واقفًا لدى البـاب.. أومأت إليه أن يدخل.. استطاعت لبرهة أن تحتفظ بردة فعل صارمة، أسلم يده إزاءها بهدوء وطواعية.. كشفـت عـن الجرح الذي بـدا واضحاً فعـل الطبيب فيـه.. عقمته، ثم قالت، وهي تغطيه:

كنت حادة في المرة الماضية.

قال، وهو يبتسم:

لا شك في ذلك..

هل تنتظر اعتذارًا؟.

لا يهم.. أنتظر إقرارًا فحسب..

قالت باقتضاب:

فيم؟.

في حقي بالتوجع من أجل وطني.

إن كنت تؤمن بذلك، فلماذا تنتظره مني؟.

يحتاج المرء إلى من يقف بجواره عندما يكون مؤمنًا بقضية مصيرية.. ألا تشعرين بذلك؟.

بين بين..

وكيف؟

قالت بهدوء وعقلانية:

أحب بالطبع أن يقف أحد بجواري يؤازرني فيما أؤمن به.. ولكن إن لم أجد مضيت وحيدة.

هل تسمحين لي بسؤال؟.



تفضل..

كلنا يعرف قدومك من أمريكا.. ولكن هل يمكن أن أعرف السبب؟.

وهل يهمك ذلك؟.

نعم.. يهمني.

لماذا؟.

كانت كلماتك موجعة.. أردت حقًّا أن أتبين موقعها منك.

اضطربت.. نهضت من مكانها.. قالت:

عن أي كلمات تتحدث؟.

قال بصوت مرتفع:

أنا لم أضيع وطني.. عاركم أنكم فعلتم.

حدقت في عينيه..

حقًّا لم أضيع وطني.. وما زلت حتى اللحظة أتملى وجهه الحميم.

ولماذا إذا قدمت إلى هذا المكان البائس؟.

إنها الأقدار يا.. استدركت.. حقًّا.. بماذا أناديك؟.

ياسر.. اسمي ياسر.

لم أشعر بالعجز شعوري إزاء الأقدار.. إنها تتصل بالماء؛ لذا تحيل الإنسان مخلوقًا ضعيفًا.. ضعيفًا جداً.



ذات الأقدار التي غرست قدميك هنا.. أوجدتنا كذلك.

حسنًا سيدي.. أنا أقدر ذلك فعلاً.

قاطعها متعجلاً..

تقدرين؟!.. ردت بهدوء..

عندما يحدق المرء في التفاصيل يدرك الحقيقة جلية.

فقد أبصرت إذًا تفاصيل الحكاية؟.

نعم.. وعرفت مأساتكم الحقيقية.. باستهجان:

عدنا ثانية للإدانة والمغالطة؟.

ليست بإدانة.. إنها الحقيقة.. لماذا تحبونها عندما تكون لجانبكم وتخدم مصالحكم؟.. لماذا تتكرونها عندما تشير بإصبع الاتهام لحماقتكم التي لا يمكن أن تغتفر!.

رد بعنف:

إن الحماقة التي ارتكبتها هي عودتي للحديث معك.. كان ينبغي ألا نلتقي.

هكذا أنتم.. عندما تقفون مواجهين ذواتكم تبدؤون بالفرار والانهزام.. لن تستطيعوا المواجهة أبدًا، ولذا ستموتون كأبسط ما تموت الحشرات.

انتبهي لما تقولين.. لا يحق لك أن تسبي نضالنا!.



ضحكت بصوت مرتفع حملتـه كل ما اعتمل داخلها من شعور قاتل بالرفض.. الرفض لواقعها البائس الذي يقترب من النهايات الأليمة، ولواقع هذا الشعب العاجز المسكين الذي يمضي بلا حول ولا قوة، وقد أتم فصول اللوحة من ملامحه البائسة يأسًا وانحدارًا..

نضالكم؟.. حقا.. فأنتم تناضلون في خنوعكم واستسلامكم.. هل تستطيع أن تنكر ذلك؟.. كم أنتم أشقياء؟!.

دائمًـا ترسمين الواقع بالطريقة التـي تحلو لك، ثم تحملينا جميعًا لنهز رؤوسنا بالطريقة التي تريدين كذلك!.

ياسـر.. إن كانـت الأقـدار حتمت عليكـم اللجوء إلى هـذا المكان البائس.. فهل حتمت عليكم كذلك معايشته؟.

ومن قال ذلك؟.

أنتم.. تمنيت حقًّا لو أدرك وجهًا آخر.. صوتًا آخر.. حركة أخرى.. إن كل شـيء يمشي برتابة مطلقـة قاتلة ترسم حتى الحياة موتًا.. كلكم تعرفون السكون.. لا شيء غير السكون!.. هل تستطيع أن تنهض بوجهي هذه المرة؟.

إن مجرد يدي المقطوعة لتصفع أوهامك إلى الأبد.

ارتـدت للوراء.. شحـب وجهها.. تضـاءل تمامًا كمن بـاع قدسًا.. وطنًـا.. تراها واهمة حتـى النهايات!!.. ترى أكانـت عيناها الزائغتان الفجيعتان تسقطان مـا بداخلها من عجز وإرادة مسلوبة على كل شيء مما ارتمى حولها.. لا.. فالواقع هو الذي يفرض هذه الرؤى.. إن العجز



سمت كل شيء.. الكلمة.. الموقف.. حتى الحياة التي لا تعبأ بالفكرة.. الموت رابض في الأشياء.. والوجود كله يسير في مسرب اللاوجود والعدم.. لم أبصر كما أريد.. هم الذين رسموا إطار الموت يحيط بهم.. بأنفاسهم اللاهثة للاشيء.. للسراب.. للوهم.. أيمكن أن تتغير السنن، فتقبع وراء كل هذا الانهزام روح الانتصار؟!.. إلهي، أيمكن هذا؟.

عندما نهضت يدي في وجوههم حزوها بسكاكينهم الصدئة كما تحز عروق شجرة يابسة خربة وتلقى في الطرقات المعفرة المنسية..

جللها الصمت.. انتصب السكون هذه المرة عملاقًا داخلها.. كل هذا البؤس والحرمان يتشكل الآن وجهًا متجهمًا يلفظها هي بلا إنسانيتها.. بشعاراتها المزعومة.. ببرجوازيتها العفنة التي أبصرت عبرها عيونهم الآملة.. أحلامهم الكسيرة مجرد هواجس لا تستحق أن يلتفت إليها.. كم من المرات زعمتهم حشرات كان الأجدر بها أن تندثر.. تنفذ إلى لباب الأرض وتستقر هناك.. مع الذين عفا عليهم الزمن ومضى.. ها.. إن الصورة كلها تنقلب.. لماذا يا أبي، كنت تجمل في كلماتك، ولا تلقي في روعي الحقيقة كاملة.. أنى يا أبي، إذًا كنت تردد: ذات يوم كانت لهم وجوه نضرة.. أنى لي أن أدرك تلك الملامح والقسمات؟.. ليتك يا سيدي الزهراوي، أنقذتني من هذا الأسى الذي وقعت فيه مرتين.. مرة حين أدركته بوجهه الشائه الشريد.. ومرة حين أدركت وجهي أنا شائهًا شريدًا وهو يتعالى على إنسانية شعب برمته تكالبت عليه الدنى، فرمته هنا بلا عنوان ولا هوية ولا وطن!!..

عندمـا كنـت فـي فلسطيـن.. كنـت أرسـم البيـارات.. ضحكات الأطفال.. وعلى الرغم من وجود الاحتلال إلا أننا كنا ننعم بظل الوطن.. الأرض.. كنا نرتمـي كلنا فلة على صدرها الذبيح نعدها بأن تظل لنا.. ريشتـي كانت لفلسطين.. للقدس.. للبحر الذي يتعالى كوجه على أحلى المدن.. ولما لفّت الدنيا ودارت وصار الوطن غريبًا.. لم تعرف ريشتي السكـون.. السكـون!.. هذا الشيطـان الذي لعنتنا مـن أجله!.. فظللت أرفضـ غير الوطن.. وغير قدسـ الوطن.. غير تـرب الوطن.. وشجر الوطن.. وهواء الوطن.. أرواحنا كلها معلقة بالوطن.

اغرورقت عيناه بالدموع، تماهت صورته بصورة الجدة.. أبصرتها فـي وجهه المقطوع من حزن المخيـم.. كان صوتها عاليًا وهي تنتحب: كان قويًّـا مثـل عمـود الدار يا جـدة.. كان يعـرف الفرح فـي البيارت ومواسم الزيتون.. كانت مواسمنـا أعراسًا فصارت أعراسنا أحزانًا.. مـن يوم النكسة مـا رأينا لحظة حلـوة!!.. كيف لم تسمـع هذه الآهات الذبيحـة؟.. كيف لم تبصر الوجع الحقيقـي الكامن في كل شيء؟.. يا لهذه الملامح المجبولة بأنات الحزن! كم كانت آهاتك صدى باهتًا في عوالم من يرتحلون إلى ذواتهم.. ذواتهم فحسب!!..

وجـاء يوم الأرضـ.. رسمت فلسطين، وهي تنـادي، والقدس تبكي المسلميـن.. رسمت وجوه كل الذين يهمهم أن نتجذر في أرض الغربة؛ لتكون فلسطين لليهود.. كنت أعرف أن الرسم في هذا الزمن ليس من حقـي.. وأن العقـاب عاجـلاً أو آجـلاً.. ولكنني لم أستطـع الصمت.. وحدهـا الألوان كانت تنساب وتنفرز؛ لتخـط كل ما بداخلي من وجع.. الوطن غالٍ يا مريم.. والغربة مرة!.

ظل الصمت يعلو محياهــا المنكسر.. لأول مرة لا تستطيع أن ترفع عينيها في عينيه.. وكيف؟.. كيف ونظراتها الآثمة قد نالت من كل شيء جميل شريف في هذا المكان الشريد؟..

في الليل تــم كل شيء.. كانت طرقاتهم علــى الباب مجنونة جنون الــذي كان عندما تشردنــا وتركنا الوطن وطنًا للغريــب.. تحاملت أمي المسكينــة على مرضهــا وضمتني لصدرهــا.. كان الخوف على حياتي يطلــق لسانها بالقرآن.. قــرأت (يس).. مسحت علــى رأسي وصدري، وهــي تبكــي بحرقة.. الذي كتبــه ربنا يا أمــي، لا بــد أن يصير.. وكان المكتوب صعبًا.. نزعوني من بين يديها.. صرخت.. كلماتهم أسكتتها.. كانــوا يشتمون الوطن والعمالة ونكران الجميل.. أمسكني واحد وقيدني قــدام أمي وأختــي الصغيرة.. والثاني مسك السكيــن وبدأ يحز يدي.. كان يصــرخ ويقــول: حتى لا تفكر في يــوم أن ترســم أو تتكلم.. انفجر النزيف.. وانفجرت روح أمي المسكينة زاهقة على بِرّكة الدم.. وارتمت أختــي الصغيــرة على صدري.. كانــت تحاول أن تقول شيئًــا.. أن تفعل شيئًــا، ولكن بلا فائــدة.. أدركت أنها فقدت النطق فــي تلك اللحظة.. كان التشنج الذي أصابها قد شلها حتى الممات.. أما حياتي فقد كانت أعجوبة من أعاجيب الزمن الغريب الذي نحياه..

أضحــى الصمت الذي ظلت تندد به منــذ قدومها المخيم حرفتها التي لا تــدرك سواها.. ارتدت كلماتها عارًا يصــم جبينها الفلسطيني الغريب لتلجم لسانها إلى الأبد.

فــي كل بيــت حكاية.. قصة.. الذي لم يمت علــى أرض الوطن مات غريباً.. والذي لم يعش فقيرًا عاش ذليلاً بلقمته التي يتلقطها هناك في



المهجر.. والذي لم يعش حرًّا، فغاب هناك وراء الشمس التي رحلت ولم تعد، عاش هنا خائفًا حزينًا يسكنه الأمل بعودة حبيب لا يجيء والخوف من حرمان آخر.. كلنا أشلاء ومن تشرد مرة، فسيظل العمر مشردًا..

يا لوجهك.. وإيمانك يا جدة!.. كنت دومًا ترددين: (والله يا وطن.. راجعون)!.. يقينك الفطري يهزني.. يجعلني صغيرة أمام مدرستك الكبيرة.. انتماؤك الحر النبيل.. خذيني يا جدة، لعوالمك التي تتعالى حتى تضحي الأفق الذي يتشح بالغيب المؤمن المسلم بكل تلك القوة القاهرة التي تتمسكين بها.. كم أنا ضئيلة بجوارك!.. بجوار جوانحك العارفة بأسرار الوجود، تنسجينها عبر الآيات التي لا تنفكين ترددينها، ثم ترطبين الوجود بتهليلك الدفيء الحميم: لا إله إلا الله..

ها إن الحقيقة تتبدى كاملة.. ترتسم خطوطها جلية كما لا تتشكل خطوط الشمس.. كانوا يومًا وادعين يستقبلون الحياة بالنور الذي يستضيئونه من قناديل أقداسهم.. من طهر أرضهم التي عشقتهم وعشقوها حد الانصهار.. قلوبهم الندية الشفيفة أحبت الوجود أمانًا وسلامًا يضفي مسحة ساكنة خاشعة على كل شيء في هذا الكون الممتد.. كانت قسماتهم نضرة بهية تضحك كالبيارات التي تنتصب حكاية وطن.. وكأشجار الزيتون المزروعة هناك في عمق الأرض التي تشكلت قسماتها وطنًا.. أضحى شريدًا طريد المؤامرة العفنة تحكي لياليه الطويلة أوجاع شعب لا تنتهي.. وآهات أمة فجيعة تقتات الحرمان في كل آن.. أمة انتصبت ماردًا، وهي لا تملك من عدة الحرب شيئًا.. فاستقبلت الأسى بصدرها الذي اعتمره الإيمان بتلك القوة القاهرة المسيطرة.. لتجيء ترنيمات الآيات الكريمات سرًّا يحيل آلامها إيمانًا

عميقًا واعتقادًا جازمًا بأن الجولة الأخيرة في هذا المعترك المرير سترتدي حلة وجودهم وأسمائهم.

نهض.. لم ينظر في عينيها اللتين أدمنتا الإدانة.. لم يبصر شيئًا هناك في الداخل.. كان يحدق في نزف جرحه الذي لا يلتئم.. في الوجع الذي يظل يأتي على كل حس جميل بالحياة.. فيرسمه أنة لا تستكين.. حمل خطوه المتثاقل مسؤولية إطلاقه هناك.. حيث الشوارع المثقلة بالهموم ترتضيه مترنحًا في جنباتها.. خرج مخلفًا إياها وحيدة.. نهب إرادة ترى النور، ولكنها رهينة الجهل والخطو.. ماذا أفعل؟.. احتضنت رأسها الصغير بيديها العازمتين.. أخذت تبكي.. لاح أمامها أحمد الزهراوي يبتسم في وجهها الصريع.. كان يعدها بإصرار بالغ أن تنتهي آلامها وأحزانها في أيام قريبة قليلة مقبلة.. توارى وجهه خلف أشجار الزيتون واللوز والبرتقال، حيث الأرض التي تحتل الأفق طهرًا وإيمانًا خاشعًا بالحق العتيق.. امتزجت كلماته الأخيرة بالصوت المقدس المنبعث من هناك.. من روح المآذن التي تمتد جذورها لتعتنق الأرض والأقداس: الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. أصغت جيدًا.. كان صدى الهمس يتردد في أعماقها بعيدة..ظل يتضح ويتضح حتى تكشف عن ندائها المشفق الحميم: تعالي يا جدة.. رفعت عينيها في السماء.. كانتا تتلألأان وضاءة وحيرة..

نعم، يا جدة.. يجب أن تأخذيني لعوالمك الساحرة؛ لأشعر بالدفء كما لم أشعر به ذات مرة.

الأشياء الآن تأخذ بعدًا آخر.. الشوارع الضيقة كانت تفسح عن أمل عابق بإرادة الحياة والعودة.. تلك الأجساد الهزيلة النحيلة صارت

تتفتـق عن أسـى حقيقي ساكن فـي أعماقها يستدعي الألـم وإرادة ما للتغييـر لا للإدانة والتنديـد بخنوع مزعوم أو ذل مهين.. أما الأفق فقد كان يضحـك لتلـك القسمات النضـرة الحية التي تختفـي وراءه، وهي لا تـزال تعلـن التهليل شعارهـا الوحيد في اشرئباب حميـم مع المآذن الغائبة والحرم الفقيد..

فتحت الباب الخشبي الهزيل.. كان صوت الجدة دافئًا رقيقًا تعتريه مسحة غريبـة دفيئة.. أتراها يا جدة، أنفاس تلـك القداسات الرفيعة التي تشربت روحك الأصيلة.. كانت تغني بصوتها المتهدج الحنون:

فِلسْطينُ دارِي   ودربُ انتصارِي

تظـلُّ بـــلادِي   هوىً فِي فُؤادِي

ولحْنــاً أبِـيّـا   عَلَى شَــفَتيّا

كان صوت الصغيرين يتناغم بانسجام جميل مع صوت الجدة التي كانـت قد أعملت أناملها في ثـوب فلسطيني بديع يعبق برائحة الأرض، ويسمو سمو الحياة في وطن تعلوه الإرادة المؤمنة بالحق والعودة..

مـا زال هاجس أمريـكا يلح عليها بـكل حيثيات روعتـه، ولكنها لا تستطيـع أن تخفـي أن ثمة شيئاً غريباً لا تستطيـع أن تتلمس أبعاده يلح عليهـا كذلك.. شـيء لا يقترب من جمال أمريـكا وشوارعها الفسيحة، حيث تترامى على أطرافها مدنيـات راقية تعرف كيف تصنع الرفاهية لـكل الساعيـن لهـا.. للأكاديمييـن.. للاهيـن والعابثيـن.. للجادين والدارسيـن.. شـيء يخلق جواً ساحراً لم تعهـده في أمريكا على جلال



روعتهـا وعظمة أسطورتها.. شـيء يشدها من الداخل.. من الأعماق.. يحاكي فيها بعدًا جديدًا كل البعد عن جسدها.. عن عقلها الذي طالما أغـرق في علوم الصيدلة والمختبرات والتحاليل الطبية.. بعدًا آخر لم تحيه هنـاك في بلد العجائب التي تسحر الألبـاب.. لعله الروح.. لست أدري!!.. إن هــذا الشعـور ليختلف تمامًا عن كل مظاهــر السعادة التي كنــت أحس بها.. لا أخفي أنه يضفي علي سعادة من نوع ما.. نوع خاص جداً.

انقدح في ذهنها خاطر سريع، وهي تستمع إلى الصغيرين يترنمان بإيقاع جميل بريء.. أسرعت إلى الجدة:

جدة.. أعيدي علي هذا اللحن الجميل.

ضحكـت الجدة وغنـت، وهي تربت علـى كفها النـاعـم الصغير.. كانــت تهــز رأسها طربًا وســرورًا.. لعل مبعث ذلك اللحــن الذي تشكل إيقاعه انتماء للوطن.. لعلها الكلمات التي تحمل إقرارًا وتصميمًا باقيًا علـى روح المقاومة والانصهار في الأرض الطاهرة.. لعلها الفكرة التي أرادت عبرهــا أن تنزع عن كاهـل هذه الأمة الكسيــرة شيئًا من الوجع عندما يبصر هذا الجيل الناشئ الدرب واضحًا جليًّا..

رفعت صوتها وهــي تردد اللحن الذي حفظتــه بجوارحها الغضة.. وعلــى الرغــم من جمــال صوتهــا السهلــي إلا أن الجميع نظــروا إليها باستغراب وانشداه.. بادرت:

أبي.. أليس صوتي جميلاً؟.

اقتــرب منهــا.. ضمها إليــه.. رد، وهو يمرر أصابعــه الخشنة على رأسها الشاب قلقاً وجلاً..

بلى، يا مريم..

أدركت الحيرة في عينيه..

لا تخف يا أبي.. أنا في أشد لحظاتي هدوءًا وعقلانية..

تنفست أمها الصعداء.. آه يا أمي.. كم أرثي لصمتك الذي لا يزول!!..

غنــت.. كان صوتها دافئاً محلقاً.. كانت تبصر كل شيء في عينيها اللتين انغلقتا على المــآذن والبيارات.. على الأرض التي لم تزل تبحث عن الساجدين الملتصقين بتربها الطاهر.. على الوطن الشريد الغريب الــذي بات على مرمى ارتحــال أليم.. كانت تغني لــكل ذلك.. وللسحر الذي يشدها من الأعماق للأعماق التي لم تعهد.. قالت سمية:

رحمــة الله على عمك يا مريم.. كان دائماً يتمنى رؤيتك.. أي والله لما هاجر أبوك بكى الدم بدل الدموع.

أطــرق الجميــع مترحمين.. نظــرت مريم بطرف عينهــا الملتمعة إصرارًا إلى الصغير الجالس في حجر الجدة.. أومأت إليه بأن يقدم.. نظر في عينيها متوجساً.. كثيراً ما كانت تشير إليه بذات اليد أن يبتعد عن ناظريها.. يغيب؛ لئــلا يقترب بجسده القميء منها.. لم يستجب.. قالت بصوت عالٍ:

تعالَ..

دفعته الجدة برفق.. شجعته، قائلة:



مريم، يا عمر، تحبك.. مريم الخير والبركة.

انسحب من حجرها بهدوء.. اقترب ولامات الحيرة والتوجس تتضحان على رقعة وجهه الصغير.. ضمته بيديها الشفيفتين والجميع يرقب هذا التغير الذي بدا مفاجئًا بحيرة وقلق.. همست إليه ببضع كلمات.. انفلت من بين يديها سريعاً.. صرخ:

صحيح ما تقولين؟.

هزت برأسها باسمة: نعم.

أشار بسرعة إلى أخيه الجالس يترقب هذه الأحداث الغريبة.. ضمه إليه بيد، بينما كانت الأخرى تلوح كمن يشرح شيئًا.. همس بذات الكلمات، ومن غير أن يعبأا بأحد انطلقا خارج البيت.. فزعت سمية:

مريم.. خير إن شاء الله.. إلى أين ذهبا؟.

لا تخافي يا سمية.. عمر وإبراهيم في عيوني.. المهمة سهلة وحلوة.. لا تخافي!.

نظرت في عيني الجدة.. ليتك يا جدي، كنت موجودًا لتقول شيئاً.. نقلت عينيها في عيني الأب المذهول والأم التي تلفعت بصمتها.. أشارت إليها الجدة أن تهدأ وتجلس..

أنت يا مريم، الخير والبركة.. لا إله إلا الله.

سعلت بقوة.. هذه المرة اخترق سعالها أعماق الصغيرة.. اعتصرت ألمًا.. تمنت لو أنها تستطيع شيئاً.. لكن شعورًا بالاطمئنان والسكينة سرعان ما راودها والجدة تردد بيقين:



لا إله إلا اللّه.. لا إله إلا اللّه..

الجدة وحدها كانت تشعر بالاطمئنان، فانطلقت تعمل جوارحها في الثوب الذي استلقى بين يديها.. كانت سمية أشدهم قلقًا.. ترى ما الذي سيكون؟.. وما الذي تخطط له هذه الفتاة ذات الوجه الأسمر الغريب.. مريم.. إن صار للأولاد شيء، فلن أرحم عينيك أبدًا.. آه يا جدة، لو تتركيني أبحث عنهم..

جدة.. الأولاد تأخروا!.

قلت لك يا سمية: لا تخافي.. الأولاد بخير.. «روحي اعملي لنا كاسة شاي.. أحسن!».

هم الأب أن يقول شيئًا إلا أن الأم المتلفعة بصمتها وارتقابها بادرته قاطعة الألحان التي لم تتوقف:

تعالي يا مريم.

أسرعت إلى أمها.. كم أحبك يا أمي.. ليت أحمد الزهراوي يخبرنا بشيء؛ علك تنعتقين من قيد صمتك الحزين.. ارتمت في حجرها كطفلة.. همست:

مريم.. أين الأطفال؟.

أسرعت تبدد أطياف الخوف وهواجس القلق من نفسها التي اعتملت حزناً أليمًا:

لا تخا...

جاء الصوت صاخباً.. كانت الضجة كبيرة تنبئ عن تحقق إرادتها الوليدة:

مريم.. ناديتهم كلهم.

ابتسمت.. عاجلت أمها بقبلة.

حسنًا يا إبراهيم.. أنا قادمة.

تنفس الجميع الصعداء.. وفي الحين الذي كانت الجدة تردد بيقين وهدوء:

والله أنت الخير والبركة.. لا إله إلا الله..

كانت مريم قد غادرت المكان.. وفي الساحة الصغيرة الأمامية توسطت الأطفال.. أمسكت باليمنى يد إبراهيم.. وباليسرى يد عمر.. وهمت بالمسير.. لكن صوتًا ردها:

مريم.

نظرت وراءها.. كان لا يتجاوز السادسة من عمره، ولكنه قد غض بصره كشيخ عجوز استحيا من عمره الغريق بالخطيئة.. نظرت إليه بحنو تنتظر ما سيقول.. تابع بذات اللهجة:

صدقيني لم أقصد. ردت بهدوء:

وما الذي لم تقصده؟.

الـ.. الـ.. كرة.. أتذكرين؟.

أي كرة؟.

استدركت..

آه!.. الكرة.

ارتـد للوراء.. كان يخشى أن يبعد من هذا الاجتماع الطارئ المهم الذي ضم لفيفًا من أعضاء المخيم الصغار.. كم أوجعتها هذه الردة!.. تبًّا للإبعاد.. تبًّا للغربة.. تبًّا للتشرد.. تبًّا للخوف.. آن الأوان لكي نشعر بالأمـان ولو للحظة من عمر.. لـم تجب.. تمايل رأسهـا الشاب طربًا، رفعت صوتها بأغنية الدرب، وهي تخطو خطوتها الأولى التي كانت أشد إيمانًا بها:

فِلسْطينُ دارِي ودربُ انتصارِي

تظـلُّ بـلادِي هوىً فِي فُؤادِي

ولـحْنـًا أبـيًا عَلَى شَفَتيّا

انطلقوا يرددون بطرب، وهم يسيرون في الطرقات العتيقة.. كلمات الأغنية التي تتشكل حياتهم الشريدة وأمانيهم الطفلة البريئة بحياة آمنة مستقرة كريمـة.. كانت حناجرهم إذا ارتفع الصوت بهذا اللحن البديع تأتـي أصواتهم المفطورة على الصدق والطبيعة بألحان تتوحد في إرادة واحـدة وهم واحد.. الإرادة بالأمن الفقيد.. والهم المتكور على أكتافهم البريئـة يطبع علـى جباههم الحلـوة مأسـاة لا تنفك ترودهـم تتكشف خطوطهـا عن اسم لاجئ.. ظلوا يـرددون الأغنية في سعادة مطلقة غير مفهومـة.. لم تستطـع عقولهم الصغيرة أن تنظر لمـا اختلج خواطرهم

مــن حاجة دفينة عميقة للأمــان.. للحب.. للاستقــرار.. للوطن.. كانوا يتلمسون ذلك في عيونهم الحالمة فتفتر شفاههم عن سؤل لحبة برتقال أو دفء ينبثــق من مدفأة الكاز.. لم يستطيعوا أن يحللوا أمانيهم الحلوة البريئــة ويصفوها بعنــق كما يفعل الكبــار.. لكن أصواتهــم التي تتعالى وتتعالى تحكي الكثير.. تحكي عن الوطن الذي لك ينعموا به لحظة.. وهم يعيشــون على ثرى الغربة التي لم تثر نفوسهــم إلا شعورا بائسا بالتشرد والانهــزام.. ظلت تسير بهم.. وكلما انتبه طفل مــن بعيد.. انضم إليهم مرددا الأغنية التي يحفظونها عن ظهر قلب من حيث انتهوا:

وجُوهٌ غـرِيبَـة   بأَرضِي السَّلِيبة

تـبِيـعُ ثـمـارِي   وتـحْـتـلُّ دارِي

كان المخيم قد شهد صوت أحرار مؤمنين من قبل.. ولكنه، وبعد أن غابت الشمس عن عيونهم الطاهرة العازمة لم يصخ السمع إلا للآهات المكتومــة الأليمة.. آذنــت الشمس بالمغيب.. انطلــق الأطفال عائدين إلــى بيوتهم مترنميــن كما لو عادوا إلى الوطن.. أمــا هي فقد آثرت أن تبقى حيثما انتهوا.. اتكأت على شجر السنديان التي بسطت ظلها وارفًا ظليلاً تتأمل منظر الشمس، وهي تغيب مرتحلة عن الأرض التي امتدت خواء من حس الإنسان.. هب نسيم بارد داعب شعرها الأسود المرتمي على جبينها الوضيء.. هزها بعمق، فانطلقت تبكي.. تبكي وحيدة على كل لحظة شريدة عاشتها وعاشها إنسان في هذا الكون الذي يمتد أساه بلا أمان، وهي تردد أغنية شرقت بكلماتها:

سأعرف دربي إلى بيت جدي..





هـذه المرة كانـت لهجته حادة صارمـة.. كان يلقـي الكلمات على مسامعها، فتأتي غريبة الجوهر غريبة النسج:

مريم.. الأمر ليس بالبساطة التي تتخيلين، عليك أن تلقي بأوهامك جانبًـا.. أسابيع قليلة وينتهي بنا المقام هنا، قد تكون الأمور خيرًا مما نحـن فيه.. أسابيع قليلة.. قليلة بحيث لن تتمكني خلالها من زرع النور هنا.. قالت بانفعال:

أبي.. أنا متأكدة من أنك غير جاد.

رد بعصبية:

لم أكن جادًّا لحظة في حياتي كهذه اللحظة.. أنت تعرضيننا جميعًا للخطر.

عن أي خطر تتكلم؟.

لن يسمح لك بممارسة ما تريدين.. عملك هذا يعد ثورة.



قالت بشيء من التصنع:

أبي.. أن يغني الأطفال لوطنهم ثورة؟!.

أنت تعرفين أبعاد عملك.

استدركت:

نعم.. أعرف.. قبل أن أعود لأمريكا أو فرنسا يجب أن أضيء قنديلاً.. شمعة.. يجب أن أخرق ثقبًا في هذا الجدار.. كي ينشق الناس هواء الحرية.

رد بعصبية:

مريم، يجب أن تسكتي عن كل شيء.. كل شيء.

أبي.. أنت من تقول ذلك؟.. تلطفت.. حاولت أن تستميله لجانبها:

أبي، كنت دومًا خير مرشد لي.. علمتني كيف ينبغي أن نحيا الأشياء بحرية دون خوف.

صرخ بحدة مفاجئة:

الخوف خير لنا، إن النضال الشجاع كان طريقًا حتميًّا للتشرد والضياع.. والأمانة التي طالما رفعت لواءها هي التي رمت بنا هنا.. كفى غباء.. كفى أوهامًا.. استيقظي؛ حتى لا تقعي في حبال السراب..

أبي.. عندما كنت أقبع في الزاوية رافضة لكل شيء، كنت تفتح عيني على القسمات الحلوة النضرة في كل شيء!.



نعـم.. كنت أقصد أن تتعايشي مع الوضع إلـى حين، لا أن تتحولي إلى ثائرة تريد أن تغير كل شيء!.

أبـي.. أرجـوك.. لا تتراجع.. صورتك الرائعـة.. كلماتك الثائرة لا تزال تهجس في خاطري تضعني على الطريق الذي ابتدأت.

لا، يا مريم.. لا.. يكفي ما حل بنا من ضياع.. إن أمك حتى اللحظة غارقة في خضم الصدمة الأولى.

ولكن!..

ولكـن ماذا؟.. لسنا نقدر على تحمل نبـأ تضحيات جديدة.. إن ما ألـمّ بنا يكفي لبقيـة العمر.. علينـا الآن أن نبدأ من جديـد.. خطواته المشتـدة كانت تنبي عن عميق الألم الذي يحياه، وكانت عيناه تنبضان القلق وهاجس الحرمان أكثر من أي لحظة مضت:

إن لـم يسعفنـا أحمد الزهراوي، فهـذا يعني أننا لا نملـك شيئًا.. أتفهميـن ذلك يـا عزيزتي؟.. لا نملـك شيئًا.. كل الـذي نملكه فرصة جديدة للبدء من جديد في فرنسا.. هذا ما خطه الزهراوي مؤخرًا.

أبي.. لا تكن متشائمًا.. إن نفوذ الزهراوي يؤهله لأن يفعل الكثير.. سنعـود ونتابع حياتنا برونقها القديم.. أما هنـا، فأنا لا أستطيع إلا أن أضـيء قنديلاً.. أفتح دربًا.. لا بـد من انفتاح معنى آخر للحياة لأولئك الذيـن تنحدر حمـم الخوف على جباههـم قطرة قطرة، فـلا ينفكون ينسـون بؤسهم حتى تعود لهم قسماتهم النضـرة الحية.. أرجوك أبي، كلـل عملي بدعوات الرضى كما تفعـل جدتي الشريدة.. أرجوك أبي، لا تترك إيمانك الراسخ بالحق يندثر بهذه البساطة!.

لم يستطع أن يجيب.. آه يا صغيرتي الكبيرة.. كم تحرقني كلماتك.. حمم الخوف التي تتكلمين عنها لتنحدر على جبهتي الشقية، فتزيد من أوجاعي وهواجسي بالغد المـروع.. كم أخشى عليك يا زهرة عمري!.. كم أخشـى على أمك الحزينة، إن قلبي يتلوى ألمًا من أجلها.. من أجل صمتها الذي يذكرني بالمصيبة بكل تفاصيلها ودقائقها.. لو أنني أيتها الصغيـرة، أقـوى على تجاوز هـذه الارتكاسات الصعبـة!.. يكفيني ما ذقت منها.. يكفيني وبالاً وانحدارًا!.

خـرج مـن الصيدلية يجر أقـدام الهزيمة.. نعـم.. عندما ترتكس المبـادئ.. تتقهقر للـوراء.. يبدأ المرء طريق الهاويـة.. أنا واثقة أنك ستعـود يـا أبـي.. ستعود إلى الـدرب الذي ابتـدأت، فنهلـت منه عذبًا صافيًـا.. وإنما هي الأحزان لما تتـوارد على قلبك توارد الأسى الساكن فـي كل شـيء هنا.. آه يا جـدة.. ما أجملك وأنـت تنقشين في الذاكرة الكليمة: واللّه راجعون يا وطن!.

مـا إن أدارت ظهرها للبـاب بعد أن شيعت أباهـا، حتى كان صوته الطفل يتردد في أرجاء الصيدلية الصغيرة:

مريم!!.. اليوم كذلك؟!.

استدارت بسرعة.. ابتسمت:

إبراهيم!.. أهلاً.

آه قولي.. اليوم كذلك؟.

هزت رأسها ببراءة:

نعم.. اليوم كذلك.. اليوم وكل يوم.

رفع إبهامه إشارة الاتفاق.. قال، وهو يقف لدى العتبة:

في نفس المكان؟!.

وفي نفس الزمان.. تمام الساعة الثالثة بعد انتهاء الدوام في الصيدلية.

لم تلبث تلك الهواجس التي سكنها الخوف أن تلاشت سريعًا.. العمل في الصيدلية الآن أضحى أكثر ضرورة من أي وقت مضى.. لا بد من كل خطوة توقف زحف الأسى والتشرد في أرجاء المخيم.. لا للفقر.. لا للعوز.. لا للمرض ينهش كل حياة.. ألا تكفي هذه الفصول التي رسمت المعاناة أفق كل شيء!.. ألا تكفي الأنفاس الزاهقة أن تحيا الموت كل يوم بعيدة عن الوطن؟.. مرت الساعات بسرعة.. هكذا هي الحياة.. نحيا السعادة بلحظات تمر من بين أيدينا مر الوهم.. أما الأسى فإنه الحقيقة التي تظل تجلدنا بسياطها؛ حتى تستنزفنا لحظة لحظة.. ولكن لا بأس.. بمكنتنا أن نوجد الحياة من أصلاب الموت.. الجدة تقول دائمًا: يا مريم.. لا تيأسي من ربنا.. ربنا كبير.. يغفر الذنب، ويرحم الضعف، ويشفي المرض.. ويرجع الوطن.. آه يا جدة، لو أني أتوحد بإيمانك المطلق.. لو أني أحيا اعتقادك الذي ينتصب جبلًا لا تزعزعه رياح الشك والانهزام.. إيه يا جدة.. إيه.. كم ينبغي أن أظل بجوارك حتى أتقمص ملامحك؟!.. لا.. لا أريد أن أتقمصها فحسب.. أريد أن أعايشها.. أعايش صدقها الممتد عبر مجاهل الكون وزيف الباطل الذي نحيا.



اقتربـت من الشجرة.. كان الأطفال يتقافـزون حولها.. يتسلقونها ببراءة غابت عن عينيها في مرات كثيرة.. ذات الحوادث تتكرر، فكأنها وليـدة اللحظة.. كأنها لم تكن ذات مـرة.. انحراف قليل لزاوية الرؤية يتكفـل بانقلاب غريـب يأتي على كل شـيء.. يجعل الوهـم حقيقة، أو لعلـه يجعل الحقيقة وهمًا.. تراني واهمة كما قال أبي.. لا.. لا يمكن أن أكون واهمة.. فإرادة الالتصاق بالوطن والموت من أجل أن نحيا لحظة واحـدة في ظل القدس الـذي نعتقد أنه يستحـق أن ننظر للأمر كذلك بعيدًا عن ذاتيتنا وشخصيتنا المفردة.. فالأمر أبعد من ذلك بكثير.

ما إن لمحوا طيفها يقترب من عالمهم البريء حتى جمدوا مكانهم كما بدا الاتفاق.. عد إبراهيم عداً تنازليًّا:

٣، ٢، ١.. انطلقوا بصوت واحد منظم على الرغم من عدم توحدهم فـي المكان.. حيث انسربوا متعلقيـن بشغف العطش الظميء للأشجار والأرض والهواء:

«منتصبَ القامةِ أمشِي..

مرفوعَ الهامةِ أمشِي

فِي كفِّي قصفةُ زيتوُنٍ وعلَى كتفِي نعشِي

وأَنا أمشِي

وأَنا أمشِي

وأَنا وأَنا وأَنا أمشِي»

تمايل رأسها طربًا.. نظرت إليهـم بعين العطف والإشفاق.. ليتكم تـدرون بطفولتكم الندية عمق السعادة الغامـرة الطافرة التي تهبونني وأنتـم تدركون.. تحفظون الأقداس.. الوطن.. ترددونها الآن بألسنتكم الصغيرة.. لتغدو غدًا عالمكم الأوحد الذي تحيون هواءه وتنشقون عبير طهـره العتيق.. مدت يديها.. تجمعـوا سريعًا حولهـا.. وإذا توسطتهم غنـت تحلق في عوالم الطهر الصادق.. في الأقداس.. في الوطن.. في الإرادة الحرة.. فـي عيني الجدة.. وفي صمت ياسر.. ياسر.. أين أنت الآن؟.

«انهضْ للثـورةِ والثـَّأرِ

انهضْ كهبوبِ الإعْصارِ

وارجمْ أعـداءَك بالنـَّارِ

واهتفْ بالصوتِ الهدّارِ

الثـــورة.. الثـــورة..»

رددوا الكلمـات كما لو كانـوا ثوارًا بحق.. تقطبـت الحواجب.. كانت إشارات أيديهم تقول لمريم: نعرف ماذا تقصدين.. ندرك الدرب الشائك الـذي نقف علـى عتباتـه لمستقبلنا الذي لا يعـرف إلا الفـرح والأمان.. الأمان.. هل نحيا حقًّا لننعم بلحظة أمان واحدة في ظل الوطن؟.

«منْ غزةَ للقدسِ العربِي   منْ أسـرِ النِّقمةِ والتعبِ

اخـرجْ كالـريـحِ ولا تهـبِ   يا جيلَ النخوةِ والغضَبِ»

كانــوا يجاوبونها بإحساســ صادق رهيف منطلق كطيــور تعود إلى أعشاشها.. كنوارس لم تعد ترفرف فوق شطآن الاغتراب:

«وتـدفـقْ نهـرًا من لـهَـــــبِ

انهـضْ منْ قـاعِـك وانتَـشــرِ

فِي ماءِ الصفحِ وفِي الشجَرِ

فِي أرضِك وادخُل فِي المطَرِ

وامضِ كالسَّيفِ إلى الخطَرِ»

وآذنت الشــمس بالمغيــب.. صاروا ينســحبون واحداً واحداً، وهم لا يزالون يرددون اللحن الأبي الصامد..

«وامض كالسَّيفِ إلى الخطَرِ..»

انسحبــوا جميعــاً.. وعاد الهــواء خواء إلا مــن أنفاسهــم العذبة.. حركاتهــم البريئــة. كانــت آثار السيــوف التــي صنعوها مــن أغصان الأشجار تحكي الكثير.. اقتربت من إحداها.. أمسكتها بحنان جارف.. جلست على الأرض مطرقة تفكر.. نعم.. سأمضي.. سأمضي ولن أبالي بشيء.. إن الوطن حق لنا.. حقنا أن نحياه.. حقنا..

ظلــت تردد وهي ساهمة تخطــط الأرض بالسكين الذي مسكت به، في الحين الذي استأذنت الشمس فيه لعودة عساها تكون قريبة مخلفة السكون حساً للحياة..

«وتدفقْ..

تدفقْ نهرًا منْ لهبٍ»..

مريم..

جاءهــا صوته ساكنًا خاشعًا خشــوع الترنيمات التي لا زالت تصلي للّه فــي الأفق القريب أن يجعل الوطن على مرمى أمل.. التفتت بسرعة تستطلع القادم الغريب.. كم كانت المفاجأة كبيرة!..

أنت!.. كيف عرفت مكاني؟.

قال بسكون بالغ:

كل الأولاد يتحدثون عن شجرة السنديانة وأغاني الشجرة..

لــم تجب.. عادت إلى الشجرة تتكــئ عليها، وتحملها همها الجديد الــذي لم يعــد يفاقها.. خطــت بسيفها كلمــات الأغنية علــى الأرض.. أخذت تبكي وتبكي..

ياســر.. يدك الشهيــدة شكلت المنعطف الذي غيــر مجرى حياتي هنا..

كنت أعلم ذلك.. كنت على يقين أنك لن تكوني والانهزام سواء.

نظــرت فــي عينيــه اللتين انصهرتــا بســواد الليل إلا مــن التماعة الأسى.. كانت عيناها تتساءلان بصمت:

وكيف تلمست ذلك؟.

تابع بذات اللهجة الهادئة الخاشعة..



يــوم أن كادت روحي تزهق في الصيدلية، وكان نزف يدي يتهددني بالرمــق الأخير، تشكلت قــوة عجيبة تمتزج في رحمــة شفيفة خالصة استطاعــت أن تستنقذني مــن براثن وجع لا ينتهــي.. إن القوة الكامنة فيــك تستطيع فعل الكثيــر.. قوتك الحميمــة التي بمكنتهــا أن تستعبر أوجاع المخيم.

ولذلك لم تيأس من إداناتي المتكررة..

حقًّا.. ولم يمضِ وقت طويل..

ياسر.. حدثني عن نفسك..

قصتــي هــي قصــة الآخرين في هــذا المــكان الغريــب.. الأسماء وملامح الوجوه هي التي تختلف فحسب.. ردت بهدوء:

أين عائلتك؟..

عندمــا هجّرنا من بلادنا كان أبي يتهــدد ويتوعد، ويحلف باللّه أن لايبقــي من الغرباء أحــداً.. ما لبث إلا أن سمعــت صوت رصاص دوت علــى إثره صرخة أبي.. كان اليهودي يضحك بجنون، وهو يركله بقدمه اللعينــة ويقــول: «كوم خبيبي.. كــوم واعدمنا زي ما بتكــول».. مسكينة أمي.. لم تعش عمراً سعيداً كالنساء.. كل نساء فلسطين لم يعشن عمراً هنيــاً.. ضــاع الوطن.. ثم مات أبــي.. ولحقه أخي الكبيــر مهاجرًا إلى بلاد لم نعرفها، ولم نعرف عنه شيئاً حتى الآن.. وآخر المصائب كانت فــي يدي التي تقطعت شراايينهــا أمام عيني الحزينتين.. إيه يا مريم.. أي قوة مركبة في الإنسان تجعله يحتمل كل هذه المصائب؟.

تذكـرت جدتها، وهي تقول: لما ينزل الله مصيبة يكون نزل العزاء قبلها.. حكيت لك يا مريم.. الله كبير.

الله كبيـر يـا ياسر.. يقـوي الضعيف.. وينصر المظلـوم.. ويرجع الوطن.

تحتارين من الأقدار وتسلمين بها؟.

الجـدة علمتني كيف أسلم بهـا.. ليتني أكون بعمـق إيمانها وثقتها المطلقة بالأقدار التي لا تصدر عن عبث وغفلة.. تابعت بلهفة:

في ولاية «متشجن» التي كنت أعيش فيها لم أكن أبصر روح الله في شـيء.. حتى القيم والمبادئ التي نشـأت عليها كنت أدركتها من صلب أمريـكا.. أبي لا يصلي.. أمي لم ترتدِ الحجاب ذات مرة.. وكنت أشعر بسعـادة غامرة مع أصدقائنا الأمريـكان.. كنت واحدة منهم لا أختلف عنهـم بشيء إلا اللون الأسمر واللكنة العربية التي أتقنها بحسب أصلنا العربـي.. وقـد أصَّل ذلك طبيعـة الولاية التي أعيشـ فيها، فهي تحوي أكبـر جالية عربية في أمريـكا.. لا أخفيك يا ياسر.. إن أمريكا رائعة.. يحيا المرء فيها بأجواء ساحرة رائعة وكأنه يعيش في كوكب آخر.. لكن شيئًـا ما يختلف هنا.. ظللت أحـاول تلمسه.. في كثير من الأحيان كنت أخفق.. اهتديت أخيرًا.. كنا نعرف الرب في أمريكا وقت المناسبات.. الأمريـكان بالكاد يصلون الكنيسة.. وأنا لم أعرف الصلاة أبدًا كقيمة عليا تشعرك بوجـود الله.. منذ وصلت إلى هنا كانت أول عبارة طرقت أذنــي تهليل جدتـي الحميم الدافئ.. كانت دائمًا تـردد بعفوية صادقة فطريــة: لا إله إلا الله.. ومع أني لم أكن آبه بها إلا أنها فرضت حضورًا



قويًّــا بداخلي لا أستطيع أن أخفيه لا سيمــا عندما كانت تتحدث بيقين غريب عن العودة والوطن والأقداس.. لم أكن أصحو من إغماءة أو غفوة إلا وأسمعها تحكي شيئًا عن الأقدار والسماء والقوة المطلقة.. لأول مرة تتشرب روحي هذا.. في أمريكا الناس يتخبطون ولا يعرفون الله.. حتى الأساتــذة الكبــار وأصحاب المراكز العلمية العريقــة لا أحد منهم بكل الــذي وصل إليــه يستطيع أن يبلغ ما بلغته جدتي فــي فهمها لهذه القوة المطلقة.. شيئًا فشيئًــا أدركت الواقع الذي أحياه مؤطرًا بهذا الإطار.. إنه شيء ساحر.. ساحر جــدًّا.. مجرد إحساسك بالتصاق حميم بقوة غيبية قاهرة هو شيء رائع.. أليس كذلك؟.

هز رأسه.. أردف:

هل ستعودين إلى أمريكا؟.

فلنكــن واقعييــن.. لا بد من عــودة.. سأحمل هــذا اليقين بداخلي وأنشــره أفقًا جيدًا في كل مكان أذهب إليه.. تمامًا كما أحاول أن أنشر ظل شيء ما يثور بداخلي.. ظل ثورة.. أو فلنقل: ظل يقين بضرورة العودة للوطن.. لم أعرف السكون يومًا.. في أمريكا كان الإنسان قضيتي.. ولن يــزال كذلك.. كم أنت رائعة يا جدتي وأنت تكسرين القشور بفطريتك؛ لتصلي إلى اللباب وتعلمينني كيف أنظر لإنسانية الإنسان بعيدًا عن كل بعد مادي!.. يبــدو أن أمريكا وجهت نظري للإنسان من بعده الخالص الخاص المجرد.. بعد مادي أصيل!..

صمتت.. عمّ السكــون.. الليل ساكن كان يثير الأشجان، ويطلق كل إحساســ صادق حقيق بالحياة جديــر بها.. كان النسيم الدافئ يحرك



أوراق السنديانــة الغضــة، فتنتثر ضحكات الصغــار وأغانيهم للثورة..
قطعت الصمت فجأة:

ياسر.. أنا لا أقدم اعتذاري فحسب.. أنا أمد يدي للوقوف بجانبك كذلك.. بجانب كل من يبحث بعينيه الشريدتين عن وطن!.







مزق صريــر البــاب الخشبي الهــدوء الذي غرقت فيــه في الأشياء والحكايــا.. الجد العجــوز يقف مستقبــلاً القبلة علــى سجادته التي لا يــكاد يفارقهــا كلما دخل البيــت.. بينما كانت الجدة ترفــع صوتها بين الفينة والأخرى بلا إله إلا الله محمد رسول الله.. لتنكب ثانية على باقة الزعتر التي بين يديهــا.. الأولاد جاءوا والزعتر يسند الزيت يا جدة.. أمــا الزوجان الحائران، فــكان الصمت ديدنهمــا لا سيما تلك الزوجة المسكينــة التي لم تعد تعرف طعم الفــرح بعد النكسة التي منيت بها.. قبــع إبراهيم وحــده ينتظر عودة مريم بلا حــراك.. عندما يغيب عمر وأمه لا يعود للعب طعم..

أطلت بقامتها الشفيفة.. همت بإلقاء التحية، ولكن إبراهيم باغت الجميع بصراخه:

مريم.. يا جدة، هذي مريم وصلت.

ضحكــت الجــدة، وهــو يتلفت مــن بين يديهــا لاستقبــال الحفيدة الحبيبة.. بدأ بالغناء كأنما تجسدت مريم طاقة الانطلاق الساحر:

«وقَّفوني عَالْحـدود

قــال بِـدّنْ هـويـتـي

قُلْتُلّنْ والله يا خَيّ

خَبّيتْها عِنْد سـتّي»

ترنمت مريم بالكلمات التي يتشـكل طيفها إرادة فطرية بالحياة.. بالعـودة.. بالجذور التـي تمتد لتحيا فـي رحم الأرضـ.. رحم الأرض فحسب.

السلام عليكم..

رد الجميع بلا انتظام:

وعليكم السلام ورحمة الله..

التفت إبراهيم فرحًا إلى الجدة..

يا جدة، هذي مريم وصلت.. نظر في عيني مريم.. نادى:

مريم، هذي الجدة أحضرت لك هدية.

أسرعت مريم، وقبلت يد الجدة، ووجنتيها:

الله يديمك يا جدة..

بادر إبراهيم متوجساً:

أحضرها أنا يا جدة؟.



لا، يا إبراهيم.. أنا بيدي سأحضرها لمريم.

حاولت أن تثنيها.. لكنها كانت سعيدة، وهي تخطو مستعينة بعكازها إلى الغرفة الصغيرة الداخلية من أجل مريم.. مريم الخير والبركة.. «تستاهل مني هذي القومة يا ولد».

أسرع إبراهيم مغطيًا عيني مريم استعداداً للمفاجأة.. كان الجد قد آذن بانتهاء صلاته، إذ رفع صوته بالسلام.. عاجل إبراهيم:

اترك مريم يا ولد.. لا تزعجها بتغطية عيونها.

بادرت:

تقبل الله يا جدو.. إبراهيم صاحبي ما يزعجني.

ظل ساكنًا حتى جاءت الجدة.. كانت تحمل الهدية بيدها الطاهرة، وهي تردد:

الله.. «والله يا مريم، تستاهلي كل خير».. لا إله إلا الله.

ردد الأب:

الله يديمك يا أمي.. ما تقصرين.

أردفت الأم بتصنع:

والله يا جدة، غلّبْتِ نفسك.

ردت على الجميع بتهليلها الحميم.. كان إبراهيم يتقافز على الجانبين، وقد ثبت يديه على عينيها الحالمتين:



آه يا جدة.. أترك عيونها؟.

قالت بهدوء وثقة:

تعالي يا جدة.. تعالي يا مريم.

أزاح يديه الصغيرتين عن وجهها.. نظرت، فإذا بدوائر ضبابية تدور أمام عينيها:

اللّه يسامحك يا إبراهيم.. شددت على عيوني كثيرًا..

فركت عينيها بهدوء، حتى صار بمكنتها أن تبصر جيدًا.. كانت المفاجأة رائعة روعة كل ما يتصل بك يا جدة.. أسرعت إليها، ورمت بنفسها في أحضانها الدافئة:

اللّه يديمك.. كنت ناوية أصلي العشاء معك اليوم، وأطلب منك الثوب يا جدة.. كأنك قرأت ما يدور في رأسي.

ومن قال: إن الجدة لا تقرأ.. إنها وحدها بفلسفتها المؤمن العميقة من قرأت كل هواجسي، فانطلقت بثقة فريدة نادرة تحوك الأمان لحظات حياة.. من غيرك يا جدة.. من غير تهليلك الحميم.. من غير صلاتك الخاشعة.. من غير يقينك البارد برجعة الوطن منطلقًا من القوة الغيبية التي تؤمنين بها.. من غير هذا، ترى ما الذي كان من الممكن أن يحدث؟.

أمسكت الثوب بكلتا يديها.. ثوب فلسطيني رائع يتماهى فيه الوطن، كما تماهت الألوان والرسومات تحكي الجمال الحقيقي الضافي على

نفسها الطاهرة.. اللّه يا جدة.. ما أجمله!.. ما أجمل يديك الحانيتين! تنسجان الجمال المؤمن بيقين دافئ حميم؛ ليتعالى على كل عوالم القهر والحرمان.. وعلى كل عوالم الزيف النكد يرسم الإنسان بلا إنسان.. سارعت لارتدائه.. لأول مرة تبصر نفسها بهذه الشفافية.. كان الثوب ينساب سابغًا على جسدها الصغير آية من الطهر الشفيف.. لفت الشال الأبيض على شعرها الأسود الناعم.. فتكشفت آيات الجمال فيها.. اللّه يا جدة، إني أبصر وجهك في وجهي.. أحقًّا أكونك؟.. أحقًّا سيسكنني هذا الإيمان الخالد؟.. إنني أنهل من معينك الصافي كأشد ما يكون العطش.. ويكأن عمري أغرق في بحر الظمأ، حتى آن له أن يروى.. لم ترويني أمريكا يا جدة، كما رويتني من صدق شفاهك التي تفتر عن عمق الإيمان الساكن في أعماقك، وهو يتلو الآيات مترنمًا بها، واثقًا بقدرتها على المستحيل..

في الساعات الأخيرة من المساء كانت الجدة تقطع الليل بصوتها الرادف المتهدج، وهي تتلو آيات من القرآن الكريم.. لم تكف عينا الناشئة على هذه العتبة المقدسة عن البكاء.. كان خفق قلبها يتناغم وآيات الكتاب الكريم.. يشتد حينًا.. ويطمئن ساكنًا هادئًا في حين آخر، حين كانت الآيات تتكشف عن رحمة اللّه بعباده، وقبول إياهم في دروب الصالحين..

جدة.. لن أخلع الحجاب..

تهللت أساريرها.. ضمتها إلى صدرها بقوة..

أنت الخير والبركة يا مريم.. اللّه يرضى عليك..



وعليـك يـا جدة يا مرفـأ الإيمان، الـذي ارتميت علـى تربه الندي غريقة شريـدة.. وي كأنك يا جدة، تستنقذين عمري من شقائه وعبثه القديم..! نعم.. القديم.. كيف قضيت عمري بعيدة عن مهد الحرم؟.. أيغفر اللّه يا جدة؟.. «اللّه كبير يا مريم.. يرحم الضعيف.. ويغفر ذنب العباد.. ويطعم الفقير.. ويرجع الوطن».

كان عبق الأيام الممتدة في رحم الغيب المقبل حانياً ساكناً.. كانت يداهـا الساكنتان لا تزالان تعملان النور في القناديل المطفأة المنسية علـى هوامش الزمـن.. أما السيد أحمـد الزهراوي فقـد كان انتظاره مرتبطـاً بإرادة اللّه.. تلك الإرادة الحكيمة الرحيمة التي لا تغفل عينها عـن أحد.. إيه يا أحمد الزهـراوي.. لا يزال ظلك يتراقص أمام عيني أمـلاً لا ينتهـي.. ولكني لـن أعود كما بـدأت.. هذه المـرة سأعود وفي قلبي إيماني بالقوة الإلهيـة القادرة على كل شيء.. الحانية التي ترحم رؤوسنا من تساؤلات كونية تظل راكدة في الأعماق.. تؤرقنا بين الحين والحيـن، ولا يكـون منا إلا أن ننساها في خضـم الحياة التي نحيا.. لن أنسى.. سأحملها في قلبي، ويكون هذا الشال الصافي صفاء روح الجدة دليـلاً على وجودها واستقرارها في العمـق.. ولتقبل رجائي هذه المرة بعودتك بعد أن أضيء هذه القناديل التي لا يكمن أن أرتحل من دونها.

مريم.. ما الذي نتج من هذه الزيارة؟.

قـال، وأوراق السنديـان تتمايـل متناغمـة والنسيـم البـارد يظل غناءهما المكدود من السعي الشاق وراء كل معنى للحياة:

اتفقـت مع التاجر علـى الأسعار.. أول الشهر القـادم سيذهب إلى العاصمـة، وأكون قد هيـأت الأمور كلها مـع نساء الحـارة.. الأثواب.. السلال.. المربيات..



تابع:

أخشى يا عزيزتي..

لا تخشَ يـا ياسر.. لن ننسى الأرض التي تحن إليها كل جوارحنا.. لكـن الحياة مع الفقـر والحرمان مستحيلـة.. إن الجيل الـذي سيرفع الراية يجب أن يكون على قدر المسؤولية.. الجوع لن يفعل ذلك..

باء كل منهما بالصمت تاركاً العنان لعينيه أن تسرحا في المستقبل البعيـد.. احتضـن يدهـا المتشققـة.. أدار الخاتم الـذي توسط كفها الأيمن الرقيق:

إيه يا مريم.. لقد كان حلمًا..

ضحكت:

وهل تحقق؟.

لن تزالي حلمًا..

وأنـت كذلك يـا ياسر.. صمتـت برهة، ثم تابعـت، وهي تحدق في عينيه الغائرتين:

ليتني أستطيع.

صمت منتظرًا.. بينما تابعت، وهي ترنو للأفق:

أتشكل وطنًا تحياه دون خوف أو هاجس ألم.

أحببتك وطنًا.. مذ عرفتك عرفت السلام.. عرفت الأمان.. مريم.. إننـي معك أستطيع أن ألمس دفء الوجود.. الأمان الذي شقيت عمري



بحثًا عنه، ثم ارتددت عبر مجاهل الغدر والفجيعة مرتكسًا منهزمًا لا أملك من الحياة شيئًا.. نعم.. أنت وطني الذي يتشكل طيفه جذورًا تأخذني إلى الكروم وحوش الدار.. إلى الذكرى التي تشهد بطفولتي وكوني إنسانًا يستحق الحياة..

تذكرت أصدقاءها، خطيبها الأول.. كانت هذه الكلمات غريبة على أفهامهم.. بعيدة كل البعد عن أذهانهم التي أغرقت في ماديتها ونفعيتها.. كانت تبحث دومًا عن إنسان ما يبصر فيها ما لا يبصره الآخرون.. يلتمس البعد الشفيف الطاهر في الداخل، بعيداً عن القشور التي يلوثونها بعيونهم النهمة.. أستطيع الآن أن أفهم شعوري تمامًا.. أن أحدد ملامح الغيب الذي كنت أنتظر.. عندما سمعته يتلو على أسماعها ترانيم الحب المجدولة بالوطن.. عندما تشكلت عيناها نجمتين ترفعانه من تلك الزوايا القميئة المنسية في الأرض الغريبة.. عندما انبعث عبق روحه الطاهر الشفيف نسيمًا ينشقه الدحنون في الأرض الفقيدة الكليمة.. عندما امتدت وطنًا بسط ظله الرهيف على عوالمه البريئة الجميلة كان لا بد لروحها أن ترفرف نورسًا على شواطئها الشريدة..

ياسر.. أنا كذلك أحبك وطنًا لم أعهده من قبل.. إنك ترسمني بريشتك الفنانة أفقًا آخر.. لونًا مختلفًا تمامًا عن كل تلك الآفاق المتشحة بلون الحياة الدونية.. كم تضفي ألوانك سحرًا خاصًا بديعًا على كل معنى جدير بالسمو.. عيناك ساحرتان.. ألوانك مفتاح لأسرار وجود.. حتى كفك الراجف يتبدى عن إرادة وليدة بتمسك آخر حقيقي للكون الذي يمتد زيفًا وزورًا..



ضمهــا بيده الراجفــة التي تعشقت الوجود أمانًــا لا يجيء.. أتراك أيهــا الوطن الحبيب، تستطيع أن تلم شعثــي المنساب عبر سني العمر المهدورة وجعًا ونزفًا؟.. أتراك تسدل الستارة على آخر فصول الحكاية البائســة التي أخذتني فــي دوامتها العاصفة عمــر النكسة والانهزام.. مريــم.. شديني إليــك.. إلى عينيك النجمتين؛ لئــلا أعرف السقوط.. وامتدي حقــلاً من سنابل قمــح يزرعني سلامًا؛ لأزهــر برعمًا صغيرًا يستقبل الشمس والنور بلا انحناء أو هوان..

كانت تدرك الفجيعة تقتل داخله.. إنها تذكر السؤال جيدًا.. تجيء حروفــه واضحة وضوح الأسى الكامن في كل شيء: ترى، أي قوة مركبة تجعل الإنسان يحتمل كل ذلك؟..

ياسر.. إنك الفجيعة التي منيت بها كبيرة.. ذوى الوطن أمام عينيك كأبسط ما تترنح زهرة.. ارتمى أبوك بلحظة غادرة سريعة مجنونة على يد غريب الدار الذي انتصب وطنًا مزعومًا.. اغتالوا ألوانك التي دأبت علــى رسم الوجود حقيقــة ساطعة كالشمس التي تشــرق على دحنونك المغــدور، وحوش الــدار الذي يرتمي أنينه علــى أسماعك الطفلة بكرة نهــارك وأصيلــه.. أما وطنك الصغيــر فقد تهاوى فــي ليلهم الدامس، تــاركاً أنسك بالصغيــرة أوراقًا مبعثرة لزهرة لم تعــرف الحياة.. حقًّا يا ياسر.. أي قــوة عظيمة تحيلك إنسانًا صامدًا قادرًا على مواجهة كل ذلــك؟.. إن روحي كادت تزهق لمغــادرة أمريكا، وأنا لم أعانِ شيئًا من كل ذلك!.. أنت قوي يا ياسر..إن قوتك مبعث سرك.. لا تتوهم.. لا تظن أنــك ضعيف.. إنني أحاول التحليق؛ حتى أصل ذراك.. استعلاؤك على كل الضعــف المحــدق بك يرفعك فوق سمائي التــي تبصر نجوم الحب



فيهـا.. أنت قوي يا ياسر.. قوي.. إلى الحد الذي يدفعني للتضحية من أجـل عينـيك اللتيـن لا تكفان عـن زعمهما كسـيرتين.. أمي الرافضة لا بد ستذعن في آخر المطاف.. أبي اللاهث وراء مستقبل رغيد هناك في وطنه الغريب سيسلم لإرادتي، بعد إذ أذعن غير مختار.. سأتحدى المستحيل من أجل عينيك.. من أجل لحظة ترسمني فيها وطناً.. اللّه.. لو تعلم يا ياسر، هذه السعادة الغامرة التي تغدقها على قلبي الصغير.. أحبك سيدي.. سيدي..

انحنت شجـرة السنديان على أحلامهما الكبيـرة الوليدة التي في رحم الأرض.. رفرف النسيم حاملاً إرادة غضة صلبة بالحياة.. كشف معالمهـا جليـة واضحة، راسمـة حروفها بلون فرشاتـه الزاهي: قدسًا وطنًا!.

* * *

جدة.. سـأدور على البيوت بيتًا بيتًا.. وسأكتـب، سأكتب كل شيء؛ حتى لا يضيع الوطن!.

إيش يا مريم، بماذا تفكرين؟.

يـا جدة.. كل شخصـ خرج من فلسطين يجـب أن يعرف، يجب أن يسجل اسمه حتى لا يضيع مع الزمن.. سأكون سجلاً كبيرًا يكتبه الشيوخ والكبار؛ ليقول للجميع: الأرض أرضنا والوطن وطننا.. ونحن أبعدنا من ديارنـا إبعادًا، وكتبوا على جبيننا: لاجئيـن!.. لاجئين.. يا وطن.. وأنت وطن غريب؟!.



والله كلام معقول يا مريم.

سأبدأ منذ اللحظة.. سأبدأ من طهرك يا جدتي.. وأكتب باسمك من أخرج منا الدار التي تحنين إلى كرمها وحوشها.

والله يا مريم، الحنين يقتلني.. يا رب، أعيش فيها، ولو آخر يوم من عمري!.

الله يعطيك طول العمر يا جدة.. طول العمر، وأنت تزرعين اللوز والزيتون في الأرض التي تحبين.

الله يسمع منك يا مريم.. ومن معك في هذا العمل؟.. ستتعبين يامريم!.

ياسر يا جدة، سيكون معي.. أهل المخيم عندما يفهمون ما أريد.. الصغار الذين ستكبر الإرادة في عيونهم كل يوم جديد.

الله يرضى عليكم يا مريم.

آه يا جدة.. كللي عملنا بالرضا.. فالرضا يزرع النجاح.

والله يا مريم، دائمًا أدعو لكم.. الله يرضى عليكم.. الله يرجع لنا وطننا.. آه يا قدس، سقى الله أيام الصلاة في حرمك.. تعالي يا سمية.. تعالي حتى تري ماذا تعمل مريم!.

قفز إبراهيم من مكانه، وهو ينادي:

أنا يا جدة.. اكتبوا اسمي أولا.



رمقتـه بحـزن.. ليتـك يا إبراهيـم، تعلـم.. كان ينبغـي أن نسجل أسماءنـا هناك.. في نور الشمسـ بدل هذه السجلات التي تجمع أساناً وفجيعتنـا، فنظـل نحيا الوجـع، لا سيما الـذي وصم علـى كل حياتنا: لاجئين.. لاجئين بلا هوية ولا وطن..

أخـذت الأوراق.. وعند شجرة السنديـان الكبيرة في تمام الساعة الواحـدة التقت بعيونهـم الحالمة.. كانوا كما العـادة يتقافزون في كل مكان، وهم يرددون أغاني الوطن:

«والله لزرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر،

وأروي هالأرض بدمي؛ لتعود في وتكبر»

انتصب إبراهيم من بينهم زعيماً قائداً:

اسمعوا يا شباب.. مريـم ستقوم بعمل مهم جداً، وعلينا جميعاً أن نساعدها.

رددو جميعًا القسم الذي حفظوا:

نقسـم بالله أن نفديك يا قـدس الأقـداس.. بالروح بالدم نفديك يا قدس.

قدمها بطفولته الغضة:

تفضل يا زعيم.. الدور دورك.

تنحنحت.. رددت كمن يلقي خطابًا جماهيريًّا:



أيها السادة.. أيها الشعب الكريم..

ضحك أحدهم.. زجره إبراهيم، فارتد صامتًا مطرقًا..

أيهـا الأكارم.. حفاظـاً علـى شجرنـا وتربها الطاهـر تجيء هذه الخطوة المهمة..

صفقـوا بعفوية مطلقة حتـى قبل أن تتم ما تريد.. كانـوا مستعدين لأي شيء.. إيمانهم الوضيء يجعلهم يقومون بكل ما يوكل إليهم.. أليست سفينهم الأميـن الذي سيعبـرون خلاله هناك.. إلى جنتهـم المقدسة.. حيث الحرم والمآذن.. وحيث الوطن الذي عشقوه إلى حد التوحد الصادق البريء؟.

أفهمتهم بعباراتها الهادئـة البسيطة ما يجب أن يفعلوا.. كل واحد ممن يعرف الكتابة أخذ ورقة خطت عليها بعض العبارات.. كان عليهم أن يملؤوها؛ لتحكي اسم العائلة اللاجئة أو النازحة كاملاً غير منقوص، ومـا كان لها من ممتلكات في الأرض التـي ارتحلت غربة وأسى.. هزوا رؤوسهم موافقين.. استعدوا لإشارة من قائدهم الذي يقف على يمينها المؤمـن بالحق والعدل.. رفع إبراهيم يده الصغيرة مؤذنًا بالانطلاق.. ركضوا متسابقين متنافسين لملء هذه الأوراق التي فهموا أنها خطيرة.. وأنها تحفظ لهم حقًّا في الأرض التي لم يعيشوا على تربها لحظة..

عـادت إلـى الصيدلية، وهي حمـل الأوراق بيمينهـا.. كان إيمانها كبيرًا.. سأفعل كل ما أستطيع.. كل ما أقدر عليه، ولو كلف ذلك عمري.. الوطـن أغنية من حقنا أن نغنيهـا.. أن نحيا لحنها وربوعها.. أن ننشق عبيرها.. أن نتنعم بوارف ظلها.. حتى متى يا غريب الدار، تسرق تربنا وعمرنا، ونحن في الضياع والغربة؟.



وضعت الأوراق.. انطلقت كما العادة ترتب الرفوف، وهي تستشرف المستقبل الجذل الذي يعدها بالسعادة والأمان بعيدًا عن جو المخيم.. هنـاك في أرض الوطن.. لـم تلبث أن رتبـت الرف الزجاجـي الأول، حتـى انبعثت قذيقـة حجرية اصطدمت به، فأردتـه شظايا تناثرت في كل مـكان.. جحظت عيناها.. ركضت لتستطلع الأمر، فرأت شبح طيف يركضـ من بعيـد.. أسرعت إلى الداخـل تتفقد الأشيـاء.. حجر كبير كانت قد التفت عليه رسالة.. أدركت ذلك.. فتحتها بتأنٍّ وقلق:

أنـت أصغر من أن تريني شخصيًّا.. رسالتي تحذرك، وإلا انكسرت أشياء أكبر.. أكبر بكثير من زجاجك الرديء.

تمثل لها ياسر.. هؤلاء الذين حزوا يده الشريفة الطاهرة.. يا إلهي.. احفظنـي من كل سوء.. ماذا أفعل؟.. إن القرار الذي بمكنتي أن أتخذه الآن هو ألا أخبر ياسـرًا.. ولكن لا بـد من إخبـار الجدة.. فأنت يا جدة، كعمود الدار لا ينهد ولا يتصدع..

أسرعت إلى الجدة.. قالت بيقين يشبه يقينها القديم:

جدة.. إن الغرباء عادوا.

أين يا مريم؟.

يهددونني بهذه الورقة.. يطلبون مني أن أصمت..

لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

جدة.. لا أستطيع أن أصمت.. يجب أن أفعل شيئاً.



نعم، يا مريم.. ولكن عليك أن تحذري.

يا جدة.. الحذر لم يعد ممكنًا.. كل شيء بات معروفًا..

حامت حول رأسها الصغير أغنيات الصغار للوطن، وهم ينشدونها فـي كل مكان.. في الشوارع.. في البقـالات.. في البيوت.. هذه الأغاني التـي ولـدت رغبة أصيلـة للتعرف إلى وطنهـم الذي لم يدركـوا، فعاد الكبار الذين سكتت عنهـم الشمس يتأملون الأفق بحذر ينتظرون شيئًا ما.. طافت في دائـرة أخرى شهورًا وشهورًا من العمل المتواصل لطرد شبح الجوع وغائلة الفقر والمرض، حيث تعلمت النساء الكثيرات منهن كيف يشققن الطريق واضحًا بينًا للعمل الذي لا يضطرهن إلى أحد في دائرة أصيلة من دوائر الإيمان والثقة المطلقة بالله وبالحق وبالوطن.. وهـا هـي ذي الأوراق البيضاء تنتشـر لا لتعلن السـلام، ولكن لتتشكل بسواد الحبر راية سوداء تحكي هزيمة الغرباء والانتصار للأهل الذين تجذروا بالأرض الطيبة البعيدة.

هـذه النتائج المتوقعة لم تكن تخيفهـا.. شدها هاجس غريب تجاه ياسـر.. ياسر يجب ألا يعلـم شيئًا.. إن دوائر الخوف مـا زالت تؤرقه.. تخيفـه.. تحيلـه نهـب الذكريـات المفجعة المؤلمـة.. أخـاف أن يرتد ساكنًـا.. لا بـد لريشته أن تتحرر مـن قيدها الأليم.. ياسـر.. ما أجمل ألوانك ترسم النصر، وتخط سبيله إلى الحياة!.. فمتى تعود؟.. متى؟.

لم تأبه لشيء.. سـارت واثقة الخطو كأن شيئًا لم يكن.. إن الدرب الـذي آلينا على أنفسنـا المضي فيه لا بد أن نقطعه كله.. خطوة خطوة للمجـد الـذي يجب أن ينتصب لنـا.. لنا فحسب.. وليـس لغريب الدار والأهل.. ليس لمن سرق الأرض ومضى يزعم الوجود ملك يمين!.

مرت الأيام..

الأم تشعر اللحظة بإحساس غامر بالسعادة والحياة الحقة.. فها هو ذا زوجها سيعود بالأخبار التي ستنهي كل هذه المهزلة.. الجلوس في هذا المكان القميء.. خطبة ابنتها من هذا الرجل الذي اختطفها من بين عينيها العاجزتين عن كل شيء، لتعود إلى حجرها الحاني الحقيقي بعد عالم الوهم الذي عاشته طويلاً، وستعود إلى أمريكا.. حيث تمارس حياتها بشكل طبيعي.. ترى أتستطيع بعد هذا الموت الذي نهش الكثير في الداخل؟..

مريم يا جدة، لم تعد.. أخبرتها أن أباها سيكون في هذه اللحظات في الدار.

والله يا بنتي، أنا قلت لها.. ولكن قد تكون انشغلت بالسجل الذي حكت لك عنه.

آه يا جدة.. سننتهي قريباً من كل ذلك.. من هذه الدوامة التي وضعتنا جميعاً على حد الموت المفجع.. وستثوب مريم إلى رشدها.. تعود لصوابها الذي أفقدها المكان.. لحظات.. لحظات تساوي مناجم من ذهب، نرتب فيها أمورنا على الرحيل.. آه ما كان أشق الذي مضى!.. من يستطيع أن يصدق أننا أمضينا كل هذا الوقت المأزوم؟.. من؟.. من؟..

كادت تسترسل في أحلامها في مملكة الحياة الرغيدة التي تنتظرها على بعد أيام معدودات، حيث يتركون هذا المكان بذات اللحظة المفاجأة المفجعة التي قدموا فيها إلى هنا.. ليت الزمان بين اللحظتين ما كان..



ليتـه تقـزم مجرد لحظات تمر فـي الذاكرة مر الوهـم والخيال.. ولكن هيهات هيهات.. لعل الغد ينسي كل هذا الهم الموجع..

وهـو قادر.. فقد عاد الـزوج الذي بدا موتورًا في كل لحظة مرت به بالأخبار الحلم التي ستعيد لها مملكة أحلامها، وقد انتصبت حقيقة لا وهمًا.. حقيقة ستعايشهـا بعد أسابيع قليلة في ظل فرنسا، حيث الأمن والعقـود التي ترسم الحياة الهانئة لونًـا آخر من الرفاه الذي لم تدرك حتى هناك.. في أمريكا.. صمتك الطويل يا أم، لم يضع.. صبرك على مـر الأسى، وأنت ترقبيـن المستقبل المهدور المنسـاب من بين يديك بكل خوف وألم يتحول الآن إلى استرخاء أبدي في هذا العمر الذي رأته يمتد أزمانًا وأزمانًا من الفرحة الوليدة الغامرة.

كادت تسترسـل في كل هذا، وتـدرك تفاصيل الأشياء لولا الصراخ الذي ملأ الدار، وعينا الصغير تنزفان فجيعة..

خير يا جدة.. ماذا حصل؟.. قل يا إبراهيم.

قال بصوت راعش متهدج:

عمي يا جدة.. وجدوه مقتولاً في الطريق.

صرخت:

كيف يا ولد؟.. كيف يا ناس؟..

قالوا حادث سيارة.. حادث سيارة يا جدة!.

تهـاوت الزوجة صريعة الفجيعـة.. يا للسواد الطالـع من كل شيء يقذف الموت في الوجوه الشائهة؛ ليحتم عليها الانكسار المذل المهين؛ حتى لا تنسرب من بينها لحظة ضائعة سعيدة..



صرخت الجدة باكية:

قومي يا مريم.. قومي يا بنتي.. لا إله إلا الله.

فهمت مريم كل شيء.. لقد كانت الرسالة واضحة.. وبدأت سلسلة الانكسارات التي خوفوها بها.. حقا.. لقد كان الانكسار كبيرًا.. كان الصدع عميقًا هذه المرة.. أعمق بكثير من انصداع اللوح الزجاجي هناك في الصيدلية الصغيرة المرتمية في مكان بائس حقير.. الأشياء تتحول لوحًا زجاجياً كبيراً ينكسر فوق رأسها الشاب انكساراً تلو انكسار.. وتنطلق الشظايا لتدمي جسدها النحيل.. رأسها.. عينيها.. الشظايا تخترق الجوف.. الأعماق.. داخلها ينزف وينزف.. حتى استحالت هي لوحًا زجاجيًّا رقيقًا كاد ينكسر لولا الإيمان الراسخ الذي يعتمل الداخل..

الأم المسكينة فهمت كذلك كل شيء.. أضحت المصيبة مضاعفة.. لم تكن تجرؤ لتوجه الاتهام لطفلتها الوحيدة، ولكنها كانت تقر من الداخل مشيرة بإصبع الاتهام إليها.. نعم.. أنت القاتلة يا مريم.. أنت.. كثيرًا ما قلت لك محذرة أن تتركي كل هذه الأوهام.. لكن أنانيتك وحبك للذات أعمياك عن كل شيء.. ما نفع كل ما فعلت؟.. لقد قتلت أباك، ورميتني وحيدة شريدة من بعده.. آه يا مريم.. من لنا بعده؟.. من؟.. من؟..

الوجع الأصيل الذي هزها من الداخل لم يفقدها إيمانها الذي تؤصله الجدة بتهليلها الحميم: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. إيه ياجدة.. ارفعي صوتك بها.. فهي العزاء الوحيد في ظل زمن التراجع والانكسار..



انتحبت.. سأظل مؤمنة بالأقـدار يا جدة.. بالقوة الإلهية الحكيمة التـي لا تغفل عنا ولا ترمينا في زوايا النسيان.. وها أنا يا جدة، لا أرفع نفسي عن آلام الآخرين.. أتوحد فيهم.. فيكم جميعًا.. كلنا نضحي من أجـل القدس.. من أجل الوطن.. نعم.. الوطـن غالٍ يا جدة.. الأحباب كذلك.

أخـذت تبكي.. تبكي بعمق.. كان الجميـع صامتين.. لم يجرؤ أحد حتى علـى العـزاء، كان الحادث سكينًـا صريحًا تسلط علـى أعناقهم جميعًا، فالتزموا الصمت وتركوا الموت يهزهم بعنف من الداخل.

ياسـر.. الآن فهمت مشاعـرك فحسب.. إن الشعـور على الصعيد الذهنـي لا يخلو مـن فقر حقيقي في العاطفة.. لـم أملك إلا ذلك.. لم أصـب بفجيعة الفقـدان حتى يتسنى لـي أن أدرك وجعك.. لكنني كنت صادقـة.. ويكفيني ذلك.. كنت أحـاول أن أتلمس بيدي عمق ما تقول.. ما تهمس.. الآن فقط أعـرف السر العميق لانكسار عينك.. لأنني أحيا ذلـك، أحياه علـى صعيـد الممارسة الفعلـي.. ياسر.. إننـي أنتحب.. أبـي.. لقد كنـت رائعًا بحـق.. إن صورتك لن تزال فـي خاطري تقص علـي كل المبادئ التي غرستهـا في خاطري.. كلماتـك قناديل في ليل مظلـم دامس، فلن تزال الأجراس التي علقتها في اتساع الرحب داخلي تنحني إجلالاً ليديك الجليلتين.. أعلم يا أبي، أن كلماتك الأليمة كانت محض دائرة حزن شفيف سرعان ما تزول.. الألم الذي اعتصرك كان كبيـرًا، لكنه لن يردك بحال عن مبادئـك.. أبي، ها أنت ذا قد سقطت ضحيـة.. ليتك تقصدت ذلك.. سافرت هربًا مـن التضحية، وها أنت أول مـن يسقط.. لـو أن الوقت أسعف روحك المغـدورة لسقطت واقفًا

بمحض إرادتك.. سقوطك يا أبي، سمو وموتك حياة.. هكذا هو الموت في سبيل الأقداس..

تحققت الأسابيع القادمة مرارة تتقاذفها الأكباد.. الأم الفجيعة كانت تهذي.. تفقد صوابها، وهي تجهز كل يوم أشياءها استعدادًا للسفر ثم تهجس في خاطر الصغيرة انتظار أبيها في المطار.. التزم الجد الصمت.. منذ زمن بعيد يا شمس، لم تأخذي أحدًا تغيبينه وراء حدودك اللاهبة.. ترى كم أولئك الذين تنوين ابتلاعهم وترك من حولهم نهب الذكرى والفجيعة؟.. كل الصور الشريدة تتوالى بوضوح الآن.. يداها العاجزتان لا تستطيعان إبعادها، ولكنها تتسلح بسلاحها الماضي يقودها برفق إلى شاطئ الأمان: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

ياسر.. لماذا يستحيل الانكسار الدفين في عينيك انكسارات تعلو السطح؟.. أتوسل إليك يا ياسر، لا تفجعني بنفسك.. منذ زمن وأنا أنتظر فرشاتك.. ألن ترسم؟.. ألن تبعد السواد بألوانك الساحرة الزاهية كما وعدت؟.. سأتابع سبيلي لا مناص.. لا أملك إلا ذلك.. فإما أن أصل وإما أن أموت واقفة حيثما وصلت.. أما الوراء فهو الاختيار المستحيل.

لفت شالها الأبيض الذي ارتمت أطرافه على ثوبها الفلسطيني المتجدل بإيمانها العميق.. استقبلت النور حالمة بالغد الوضيء بعيدًا عن أي ذاتية مقيتة.. كانت الأوراق المتناثرة بين يديها تعلن الرفض وعدم الاستسلام.. لن يستطيع أحد أن يخفي الشمس بيديه الآثمتين.. لن يستطيع أحد أن يستأثر بالهواء، فيرمينا صرعى خواء..

سأمضــي.. ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ .. بموتـك يا أبـي، أزهرت أشجار اللوز والكـروم.. لأول مرة أبصر حوش الدار الـذي لم أقضِ فيه طفولتي وشبابي.. وها أنا أقضي فيه أحلامي بوطن غير شريد.. أقداس لا يعرف حرمها دنس الآثمين.. إيه يا شجرة السنديان.. ويا أغنيات الحياة، كم أنا ظميئة إليك!.

كانـت الأوراق تستعلـن كأنها تتحـدى.. تفتح يديها للغـد المشرق الوضـيء دون خوف أو حزن.. ليضحي الأمل حقًّا مشروعًا لهذه الوجوه المعفـرة البائسـة دون أن تقـام محاكم جلادين لإدانـة أحد.. جلست في الوادي الممتد تظلله السنديانـة.. إيه أيتها السنديان الظليلة.. كم الوجع كبير.. سمعتهم جميعًا يرددون:

«وتدفقْ..

تدفقْ نهراً مِنْ لَهَبِ

انهضْ مِنْ قاعِك وانتَشِرِ

فِي ماءِ الصَّفحِ وفِي الشَّجرِ

فِي أرضِك وادخلْ فِي المطَرِ

وَامضِ كالسيفِ إلىَ الخَطرِ»

رددت بصوتها السهلي الجميل.. كان الإيقاع متلاحقًا منسابًا يقرر المضي.. ولكنها لم تتمالك بشريتها.. انطلقت تبكي بشفافية مطلقة.. تسلقـوا الأشجار.. التفوا حولهـا بعيونهم الآملة فـي إيمانها الجميل..



بقدرتها الواثقة على تحقيـق الكثير.. وبصوت جبلي واحد غنوا جميعاً يهبونها العزاء:

«مِنْ أسرَى النقمةِ والتَّعبِ

اخرجْ كالريحِ ولا تَهبِ

يا جيلَ النَّخوةِ والغضَبِ

وتدفقْ..

تدفقْ نهرًا مِنْ لهَبِ»..

نهضـت.. غنت.. حلقت فـي الآفاق النضيرة الخضـراء.. أمسكوا بيديهـا.. بشالها الأبيض الشفيف، وكأنهـم يتمسكون بعتبتها المتصلة بالسمـاء.. حيث القـوة المطلقة والقدرة القادرة علـى كل شيء.. ظلوا يغنون ويصدحون حتى مالت الشمس للمغيب.. فتحت عينيها.. أشارت بإصبعهـا الرقيـق إليهم ألا يتأخـروا عن بيوتهم كما العـادة.. وسنعود غدًا يا أحبائي، ونظل نغني ونغني.. التفتت حواليها.. لم تبصر أحدًا.. بـدا المكان مهجورًا منذ زمـن.. أوراق السنديانة تتساقط وتتساقط.. تحولت الأوراق الساقطة عاصفة رملية تجتاح عينيها.. أعماقها الكليمة الجريحة.. حتى سقطت على الأرض بلا حراك..

هب نسيم دافئ داعب عينيها المغرورقتين بالدموع.. مريم.. إنهم لا يدركـون وجودك هنـا.. فانهضي بلا يأس ولا تعب.. سيظلون أجراسًا صغيـرة بريئة معلقة علـى أغصان هذه السنديانـة العتيقة.. لا تخشي يامريم.. هم رائعون روعة حلمك..



اتــكأت على السنديانة تلتقط أنفاسهــا اللاهثة.. لا بد أن أمضي.. ولــى زمــن الاسترخــاء والراحــة.. كادت تقــوم.. تتابع مضيهــا الواثق بعدالــة القضية لولا الصخرة التي انهارت من أعلى الجبل.. حاولت أن تستدرك استراقة الأحداث واستدارتها الماكرة.. نهضت بسرعة، ولكن الصخــرة عاجلت رجليهــا الساعيتين إلى النور والضيــاء.. إلى الوطن الشريد، حيث تمتــد فيه البيارات وأزهار الدحنون والنوارس التي تظل تغني للوطن والحياة..







لــم يغب عــن ذاكرتها اللحــن الجنائزي الأسود المتشــكل الفضاء الوحيــد الــذي حلقوا فيه طويــلاً.. خطوات الطبيب الثقيلــة المتباطئة كانت توقع الموت إيقاعًا خاصًّا تقاطعت في دوائر المفاجأة واليأس..

لــن تستطيع المشــي ثانية.. العمود الفقــري تأثر تأثــرًا كبيرًا عن ارتدادها ووقوعها على الصخرة الناتئة.. أنصحها بالراحة..

مساحــات الضوء التي امتدت طويلاً في أركان البيت بدأت تنحسر رويدًا رويدًا؛ لتغطيها بقع العتمة العتيقة المبعثرة هنا وهناك..

الزوجــة الذبيحة لم تكد تصحو من مصيبتها الأولى حتى ارتكست فــي غور بعيد سحيق تحترق فيه بنــار الفجيعة والخوف.. والخوف بات عنوانهــا الكبيــر.. المرة الأولى ارتحلت أمريكا بــكل ما تعنيه من حياة رغيــدة شفيفة يعبق فــي جنباتها عبيــر الأمن والســلام.. إن الصمت الــذي جلــل حياتها إزاء هذه الحادثــة ترك في الأعمــاق أنينًا لا يسكن تظل ارتطاماته بكل جوانحهــا تشدها إلى الانهزام والتراجع.. لتستمر



قافلـة المـوت بالعبـور على جسر عمرهـا الوردي تأخذ فـي كل محطة عالمًا يمـور بالحياة.. هذه هي ورثة المخيم.. زوج صريع ذبيح لم يكن مـن حقـه أن يفكر في الحياة.. فـي الغد.. في الأمـان.. كان ينبغي أن يذعن مضمخًا رأسه بعهود (النعم) يصبها، لتركد في دواخل الجميع.. دواخلـك يا مريم، حتى لا تظل تسعى للنـور والحقيقة.. هل كان ينبغي أن تفكري في الوطن؟.. في أولئك الذين اعتادوا الوجع في هذا المكان البائس المنطوي على شقاوة عمر؟.. لماذا يا مريم؟.. إن الحياة تسير في المخيم بذات الرتابة التي عهدنها منذ مجيئك.. من يأبه بنا الآن؟.. مـن يذكـر أغانيك للوطـن؟.. إرادتك في حياة حـرة كريمة؟.. ها هم يسيـرون.. يروحون ويجيئون.. أما أنت فقد كتب عليك أن تظلي حبيسة مقعد متحرك أبله يؤخرك ويرميك في الهوامش التي كنت تكرهينها.. التـي قاتلت مـن أجل ألا يحياها أحد.. ها أنـت تعيشينها، فمن سيرفع عني وعنك هذا الهامش الظالم؟.. من يا ابنتي؟.. من؟..

صارت عـادة سمية أن تلفع طفليها بالصمـت والانزواء.. لا أغنية للوطـن.. لا شجرة سنديانـة يتعودان عبرها الوقـوف.. الاستشراف.. الـدار آمنـة.. والزيـت والزعتـر يسـدان الجوع.. مـاذا تريـدون أكثر ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾.. فـي الخارج رعب.. قبل أشهر قليلة ارتمى عمكـم في شوارع المخيم القذرة وكأنه لم يكن ذات يوم شخصيـة مهمة في الغربة.. مات كالعشـرات ممن يموتون كل يوم ولا يسمـع بهم أحد.. وها هي ذي مريم ترتمي أمامكم عاجزة بلا حول ولا قوة.. الطريـق التي اختارتها لنفسها لا أختارها لكم أبدًا.. الصحة حلوة يا أولاد.. وحكايات الجدة تكفي..



الجدة.. لا تصمتي يا جدة.. ارفعي صوتك أكثر.. هدهدي أوجاعي على رقة تهليلك.. كنت العزاء الأول لي ولن تزالي.. جدة.. إن صمتك وترنماتك الحلوة سواء.. فهانذا أسمع خطو الأقدار داخلي.. أؤمن بها كما أؤمن بوجعي الآن.. وجعي يا ياسر.. أتراني أحتاج الآن وجعًا آخر لأدرك شفيف الحزن والألم الذي هزك، وأخذ منك بريق الألوان والفرح.. إيه يا ياسر.. ليتني أتسقط منك التماعة واحدة تدفعني للأمام.. أرجوك لا تزد انكساري بانكسار عينك.. احمل ريشتك من أجل الأقداس.. ومن أجلي.. وحوش الدار.. ارسم الظلمة؛ ليأتي الصبح.. ارسم اليأس الذي يفتر أخيرًا عن ضحكة الأمل.. كما تفتر شفاه جدي عن الآيات في الصلاة.. ألا ترقب سكينته وتسبيحاته المؤمنة بالقضاء.. يظل قلبه متعلقًا بها.. فلا يكاد يسلم حتى يرفع يده بالتكبير.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا بد سيرفعنا هذا التعالي يومًا.. لا بد..

أما أنت يا مريم.. فإني ارتضيت لك أن تموتي كما تموت الأشجار.. واقفة لا تعرف الانحناء.. أتعلمين لماذا؟.. لأن القوة التي تعتمر جنبيك قوة تستمدينها من الله.. من القوة القاهرة الغالبة التي تترفع عن عوالم البشر.. ولأنك تعرفين أن الوطن يمتد بالتضحيات.. ما أجمل شعاراتك وأنت تسبغين عليها حس الحياة!.. هكذا يا شمس، يحيا الوطن.. فضميني إلى تلك القافلة المباركة التي غيبت وراء أستارك الأمل..

مزق صرير الباب الهدوء الذي خيم فوق سلال القش والزعتر..

يا حاجة.. أين أنت يا حاجة؟.. أين أنت يا مريم؟..

فزعت الجدة إليه.. أدارت مريم عجلة المقعد متلفتة إليه..

خير يا حاج.. عسى ما شر؟.

انتبهـت مريم إلى عينيـه اللتين اغرورقتا بالدمـوع.. آه يا جدي.. كم هي اللحظات التي التمعت عيناك فيها بؤسًا وشدة.. تراه يأتي ذلك اليوم الذي تلتمعان فيه أشجارًا من لوز ودحنون!!..

قال بصوت راعش حزين للعيون التي حدقت فيه:

المختار يا حاجة يقول...

سكتت الكلمات تغور في عالم مجهول أليم..

آه يـا حـاج.. ما لـه المختار؟.. احـكِ ومـا تخوفني أكثـر.. احكِ ياحاج..

حدقـت مريم في عينيه.. مصيبة أخرى يا جدي.. هل تحمل أيدي المخيم غير المصائب؟.

يقول يا حاجة، صار لازمًا أن نغير أسقف (الزينك)..

استفهمت مريم:

جدي.. ماذا يريد؟.

نبني بيوتنا بسقوف من لبن!.

ردت الجدة بعصبية بالغة:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

فهمت مريم.. صرخت:

مستحيل.. سقوف اللبن لبيوتنا في فلسطين.. لأحواش الديار.. وغير هذا لا يمكن أن يحدث..

قالت، وهي تتكئ على عكازها الذي هزه التعب والتشرد:

يا حاج.. والناس؟.

تعرفين يا حاجة.. الناس هواها في وادٍ.. وتعيش في وادٍ..

والشمس تغيب وراء لهيبها الجلاد من ينظر للاثنين بذات العين؟.. يا وطن.. لماذا كلما أردنا الاقتراب ارتحلت؟.. يكاد الحنين يذوينا شوقًا للمآذن والحرم.. فخذنا إليك.. وغيبنا في ربوعك كما تشاء..

أسقف (الزينك).. ظلت على امتداد الأيام شارة شرعية تحكي وطنًا ينتظر.. تحكي شعبًا يحمل حقيبة سفر يتقصد بها وجه الأرض الغائبة الشريد.. ظلت تلك الأسقف على المدى البعيد تهمس في أعماق كل من استظل ظلها الظميء أنها تتشكل في المساء دربًا للعودة.. لماذا يا وطن، يتوطنك الغريب ونتوطن الأسى والحرمان؟!..

أدارت مقعدها المتحرك حول نفسها مرات عدة.. نادت والحيرة تجللها:

إبراهيم.. يا إبراهيم..

سارع إليها متلهفاً..

خير يا مريم!.. (إيش مالك؟).

إبراهيم.. اذهب، ونادِ ياسرًا وكل الأطفال.. سأراكم عند السنديانة.. لا بد أن نفعل شيئاً..

لفّت شالها الصافي صفاء الإرادة الحرة القادرة.. خرجت مخلفة وراءها الجدة تذرف الدموع تشق طريقها على قسماتها المهدودة المنهكة المشردة.. ردد الصدى كلماتها الفجيعة: لا إله إلا الله.. يا رب، أنت تنصر المظلوم وترحم الضعيف.. وترجع الوطن.. أرجع وطننا يا رب..

هذه المرة يجب أن نقول جميعًا شيئًا.. يجب أن نقف على صعيد واحد نستشرف أفقًا واحدًا.. ذات الأفق الذي يرسم زهرة المدائن العابقة بسحر القداسة والطهر العتيق.. الأشجار يا وطن، عندما تتعرى تتكشف حقائقها.. الآن كل الأوراق تساقطت.. تكشفت عن الأوجه الحقيقية.. وما عادت تخفي وراء اللثام شيئًا.. إن ذر الرماد في العيون لن يخلق وطنًا جديدًا.. لن يقنع أحدًا بالغربة.. ليظل الوطن للغريب.. ترى ماذا سنقول لسنوات النضال التي انقطرنا في لحظاتها المأزومة قطرة قطرة تستنزف فينا كل أمل وليد بالحياة، وانقطرت هي انسحاقًا ووجعًا يتلوى على مشارف الطرقات السوداء؟.. ماذا سنقول للأجيال الممتدة منذ الانتكاسة الأولى والوطن ينسرب من بين يديها سنبلة سنبلة تكاد تذوي هزيلة على عتبات الانهزام الذي لا يعرف التراجع؟.. حتى متى يا قدس الأنين؟.. حتى متى يقتلنا الصمت؟..



ينغرز الخوف في عيوننا شوكة تسمل النور والحياة؟.. حتى متى نهدهد جراحاتنا لتكبر استسلامًا وارتحالاً؟.. متى يزهر الجرح براعم نصر المستقبل؟.. ياسر، إن صمت الصغيرة المجدول بانشداده القديم للقدس لا بد أن ينطق رفضًا.. تمردًا.. إرادة حرة بالله.. بالحق.. آن الأوان لريشتك يا سيدي، أن ترسم دروب العودة؛ لتضحك أمك الذاوية ويعود الأب الصريع يزرع الحوش وتزهر في كفه البيارات!.

ظللتها السنديانة.. وصلت مبكرة، فانعطفت تتكئ على جذعها الصلب الوفي.. لست أخشاك.. أدرك تمامًا عينيك الدافئتين تأخذاني إلى أفقهما المسكون برغبة العودة والسلام.. إن شيئًا لن يخفيني من الوجود، فكل ملامحه تتشكل قسمات دفيئة تحكي ضحكة الوطن..

سمعتهم يضحكون يغنون:

«منتصبَ القامةِ أمشِي..

مرفوعَ الهامةِ أمشِي..

فِي قصفةِ زيتونٍ وعلَى كتفِي نعشِي

وأنا أمشِي»

مرت اللحظات ساكنة هادئة.. ينعطف الزمن على الزمن، وهم:

لما يجيئوا.. ياسر، أين أنت؟.. أيها الأصدقاء الأمل.. أين أغانيكم الحلوة؟.

سمعت صوتًا من بعيد.. التفتت.. كان خطوه كسيرًا:

إبراهيم.. أين هم؟.. أين ياسر؟.. أين الأصدقاء؛ ليقسموا للقدس؟.



جللـه الصمت.. لم يجرؤ على رفع عينيـه الحالمتين البريئتين في عينيهـا اللتين اتقدتا وطنًا شريداً.. هزت كتفه الصغير.. ذرف عبرات سخينة حزينة.. لم يتمالك ذاته الكبيرة.. ركض إلى تلة قريبة يحملها آهاتـه التي تعتصر الداخـل وتهز كيانه؛ ليرتمي علـى عتبات الأقداس والوطن والذي لم يلتقِ..

أدارت عجلـة المقعـد مستقبلـة الأفـق، وهـي تنصهـر فـي أوراق السنديانة.. سمعت الأطفال يغنون بعزيمة حكايا العودة والدحنون.. وشيئًا فشيئًا كانت الألوان تنفرز في الأفق، فترسم ملامح الوطن.. ياسر.. كنت أعلم أنك ستعود.. كنت على يقين بأغانيكم الرائعة للوطن..

نهضت تعتنق الحكايا وضحكة الوطن.. تعلقت بامتدادهما الدفيء الحميـم، فانتصبت قامـة شفيفة مـن سنابل قمح بريـة.. تحولت في لحظـة غـادرة واهمـة بحكايا الأطفـال وياسـر شظايا شتـات ترميها انكسارًا باردًا.. تمسكت بالجذور تحاول النهوض.. عجلات الكرسي ما زالت تدور وكأنها تسحق الآمال الوليدة.. جاء صوتها بعيدًا مؤمنًا:..

«ارجمْ أعداءَك بالنـَّارِ

واهتفْ بالصوتِ الهدّارِ

قســـَماً باللهِ الجبـَّارِ

ســـنعودُ لتلكَ الدَّارِ»..

دعد رشراش الناصر

عمان ١٩٩٩/١٢/٢٢م

منشورات رابطة الأدب
الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.



١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأديبات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - «عقد الروح ديوان شعر» نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.

٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينة قدور.

٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.

٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة من الأدب الأردي - ترجمة: د.سمير عبدالحميد إبراهيم.

٣٤- مخيم يا وطن - رواية - دعد رشراش الناصر.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org